سلسلة : النظريات الاجتماعية
(الكتاب السابع)

برنسلاو مالينوفسكى
رائد الأنثروبولوجيا الوظيفية

دكتور
علي ليلة
أستاذ النظرية الإجتماعية
جامعة عين شمس

2006
المكتبة المصرية
للطباعة والنشر والتوزيع
3 ش أحمد ذو الفقار – لوران الإسكندرية
تليفاكس : 002/03/5840298
محمول : 0124686049



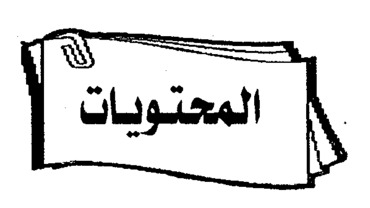
للطباعة والنشر والتوزيع
3 ش أحمد ذو الفقار – لوران الإسكندرية
تليفاكس : 002/03/5840298
محمول : 0124686049

رقم الإيداع : 2005/20703

الترقيم الدولي : 3-239-411-977


بسم الله الرحمن الرحيم





الموضـــوع **الصفحة**

الفصل الثالث

هربرت سبنسر يتصور المجتمع كائنا عضويا

مقدمة

يدرك المتأمل لتاريخ البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا أنها قد تطورت على هيئة قفزات كبيرة إلى الامام. ساهم فى تطويرها رواد عظام ابتداء من عالم الاجتماع الإنجليزى هربرت سبنسر الذى قدم التصور العضوى للمجتمع، وهو التصور الذى أسس قناعة بأن المجتمع يشكل كلا عضويا يتكون من مجموعة من الأجزاء التى ندرك معناها وأساس وجودها من خلال ارتباطها بالكل الذى يحتويها، وحتى عالم الاجتماع الأمريكى الشهير تالكوت بارسونز الذى طور الاتجاه الوظيفى متضافراً لديه مع نظريته فى الفعل الاجتماعى. بحيث أسس من هذا التضافر أطارا تصوريا شكل مرجعية أساسية لعلم الاجتماع ما زالت فاعلة حتى اليوم، تقود عمليات الوصف والتحليل والتفسير. وان بدا هذا التطور تنظيراً وانتهى تنظيرا، غير أنه بين البداية والنهاية قدمت جهود وتحققت إسهامات ميدانية عديدة وعظيمة، هى التى شكلت كافة التطور أو التحول فى تاريخ الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا.

وتعتبر الجهود العلمية الميدانية التى قدمها عالم الانثروبولوجيا برنسلاو مالينوفسكى – البولندى الأصل – من الإسهامات البارزة فى هذا الصدد. فقد تميز اسهامة فى إطار الاتجاه البنائى الوظيفى فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا من خلال ثلاثة إبعاد أساسية. ويتحدد البعد الأول فى انه على خلاف غالبية المفكرين البنائين الوظيفين قد بدأ من حاجات الفرد ولم يبدأ من أحتياجات المجتمع. حيث أكد على ان الحاجات الأساسية للفرد هى التى تشكل المتغير الرئيسى الذى يستند إلى فاعليته تشكل بناء المجتمع وبناء الثقافة كذلك ولقد ساعده فى التأكيد على الحاجات الفردية اقترابه من المعطيات الواقعية، الأمر الذى يسر له ملاحظاتها وتسجيل تفاعلها، ثم

محاولة تجريدها تصوريا وتحويلها إلى مجموعة من المقولات والقضايا النظرية التى شكلت أساس بناء نظريته فى الإنسان والمجتمع. ويتحدد البعد الثانى لإسهام برنسلاو مالينوفسكى فى إنجاز دراسة ميدانية من مستوى علمى متميز على نظام «الكولا» أحد النظم الأساسية أو القاعدية فى المجتمع «جزر التروبرياند». فى هذا الإطار بقى مالينوفسكى تقريبا لعقد كامل من الزمن، يسعى إلى فهم المجتمع التروبرياندى مقتربا إياه من مدخل نظام «الكولا» وهو نظام تبادلى شعائرى وطقوسى شكل أساساً لقيام المجتمع. وحتى يمكنه ان يصور هذا النظام، وأن يشخص حالة التفاعل الاجتماعى المرتبطة، به كان عليه ان يجمع المعطيات الميدانية التفصيلية التى تيسر له تحقيق هذا الهدف. ولإنجاز ذلك نجده قد طور الأدوات المنهجية التى استطاع بواسطتها جمع المعطيات المختلفة المتعلقة بالمجتمع وأبرزها الملاحظة الميدانية، حيث طور مالينوفسكى الملاحظة الأنثروبولوجية، وأوضح للباحث كيف يمكن الاستفادة منها بصورة مقننة لجمع البيانات بصورة منظمة ومنتظمة عن مختلف جوانب بناء المجتمع. يضاف إلى ذلك فقد طور مالينوفسكى مجموعة من المعايير الأساسية التى تنظم المادة العلمية وتصنيفها ووصفها وتحليلها، ثم تفسير التشكلات التى نتجت عنها، حيث تحقق كل ذلك بمستوى علمى رفيع المستوى.

بالإضافة إلى ذلك فقد طور برنسلاو مالينوفسكى اسلوبا علميا منهجيا وموضوعيا، لتحليل بناء المجتمع بأسلوب يمكن ان نسمية أسلوب «النظام أو المتغير القاعدة» وحيث نجده من خلال هذا الأسلوب يقوم بوصف مجتمع التروبرياند والتفاعلات القائمة فيه انطلاقا من تحليله لنظام «الكولا». فمن خلال اتصال بعض العمليات الاقتصادية بنظام «الكولا» نجده يصف النظام الأقتصادى، ومن خلال توزيع العمل والضبط الذى ينظم أداء وتفاعل نظام

«الكولا» نجده يصف السلطة والزعامة والنظام السياسى. وعلى هذا النحو نجده يصف النظام القرابى، ونظام الدين والسحر ونظام الرحلات البحرية وثقافة المجتمع من خلال اتصالها جميعها بنظام «الكولا». إلى جانب ذلك فقد استعان برنسلاو مالينوفسكى بالنهج المقارن، حيث كان يلجا دائما إلى مقارنة ما هو موجود وقائم فى مجتمع التروبرياند بما هو قائم فى المجتمعات الأوربية، ووصل من نتيجة هذه المقارنه إلى حقائق جديدة تشير إلى أننا فى مواجهة ثقافة جديدة، هى ثقافة السكان الأصليين التى تختلف مقولاتها عن مقولات الثقافة الأوربية الغربية فيما يتعلق ببعض القضايا والمناهج كالعقلانية، وعقده أويب والتوريث فى خط عصبية الأب، وهى المقولات التى تشير إلى إننا إمام ثقافة مختلفة عن الثقافة الأوربية وتحتاج إلى ان نعتبرها المرجعية التى من خلالها نستطيع ان نفهم وأن نفسر التفاعلات الحادثة فى مجتمع التروبرياند والتكوينات الاجتماعية الناتجة عن هذا التفاعل. لقد نظر مالينوفسكى بحق وأسس بنيته النظرية انطلاقا من واقع مجتمع التروبرياند وليس انطلاقا من التنظير الأوربى.

على هذا النحو فقد شكل برنسلاو مالينوفسكى نقله هامه فى تاريخ تطور التنظير الوظيفى فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا. وقد حاولت بهذه الدراسة ان أصور احدى التحولات الهامة فى تاريخ البائية الوظيفية استنادا إلى إسهامات برنسلاو مالينوفسكى وأتمنى أن أكون قد أدركت بعض النجاح فى هذا الصدد.

والله الموفق أولاً وأخيراً،،،

علي ليلة

القاهرة/ أغسطس ٢٠٠٥

الفصل الأول

الاتجاهات النظرية المؤثرة علي التصور الوظيفي لمالينوفسكي

الفصل الأول

الاتجاهات النظرية المؤثرة على التصور الوظيفي لمالينوفسكي

تمهيد :

يعد الكشف عن الاتجاهات الفكرية التى لعبت دوراً لساسياً فى تشكيل البناء النظرى للمفكر أو المنظر المقدمة الأساسية لفهم بنائه النظرى . ارتباطا بذلك فإننا ننظر إلى الاتجاهات النظرية السابقة على الاسهام الفكرى للمنظر – وهى الاتجاهات التى اطلع عليها – بإعتبارها تحتوى على القضايا الجنينية التى تشكل بنائه النظرى. ذلك أن اطلاع المفكر على التراث النظرى السابق علية وكذلك الأحداث الواقعية التى يعايشها فى سياقه الاجتماعى تساعده على انجاز مهمتين. الأول انه يقف موقف انتقائيا من الأفكار أو القضايا التى تعرض عليه أو قائمة فى الساحة الفكرية أمامة، وهذه الانتقائية لا تتم بصورة عشوائية ولكنها تتحقق استنادا إلى مرجعية الباحث التى تتشكل فى افتراضاته الأساسية التى تطورت معه، وتم استيعابها فى بناء شخصيته. والثانية أنه يسعى عادة وبصورة تلقائية بإتجاه المزاوجة بين الأفكار والقضايا المتضمنة فى التراث النظرى الذى يعايشة وبين أحداث الواقع الاجتماعى وظواهر السياق الذى يحيط به. ونتيجة لهذه المزاوجة يساعدة الواقع على تأكيد صحة بعض الأفكار أو المقولات ورفض أخرى. ونتيجة لفاعلية الاطار المرجعى للمنظر فى عملية الانتقاء، وكذلك قدرة الواقع الاجتماعى هو الآخر كمرجعية فى أنتقاء الحقائق والمقولات التى يتأكد صدقها علميا يبدأ النسق النظرى الجديد للمنظر فى الانبثاق والتشكل.

وفيما يتعلق بطبيعة وتأثير أحداث الواقع على تفكير برنسلاو مالينوفسكى فإننا نجد ان ثمة أحداث واقعية بدأت تبرز على الساحة أمامة. نذكر منها بداية الضعف أو الوهن الذى بدأ يأخذ طريقة فى بنية الإمبراطورية البريطانية، وكذلك ضعف حالة التمركز حول الذات الاوربية، اضافة إلى رومانسيته سياقه الأرستقراطى الذى ولد وعاش فيه. بحيث اثرت جمله هذه التفاعلات على طبيعة التحليلات العلمية التى قدمها، بل وانتقاء مجتمع التروبرياند، ونظام «الكولا» كمجتمع ونظام يتوفر عليه بالبحث والدراسة. بالاضافة إلى ذلك فقد تفاعل مالينوفسكى مع الاتجاهات النظرية السابقة عليه، فقد اخذ عن النزعة البراجماتية طابعها العملى، وكذلك عن المذهب النفعى مفهوم المنفعة أو الفائدة التى يؤديها أى سلوك اجتماعى أو وحدة اجتماعية أو حتى نظام اجتماعى بإتجاه اشباع الحاجات الأساسية للبشر. إلى جانب ذلك فقد تفاعل مع الاتجاهات الأنثروبولوجية السابقة عليه كالاتجاه التطورى والاتجاه الانتشارى، ورفض ان يكون السياق التطورى هو مرجعيته فى فهم نشأة أو سبب أى وحدة من الوحدات الاجتماعية. كما رفض ان تكون السمات الثقافية – كما هى فى حالة الاتجاه الانتشارى – بلا سياق. وبديلا لذلك أكد على ان الحاجات الفردية والسياق الاجتماعى والثقافى الذى يعيش فى اطاره البشر ينبغى ان يشكل المرجعية الأساسية، لفهم سبب وجود أو قبول أى وحدة اجتماعية أو سمة ثقافية، من حيث قدرتها على اشباع حاجة أو بعض الحاجات الأساسية للبشر، ومن ثم للثقافة أو المجتمع. إلى جانب ذلك فقد تفاعل مالينوفسكى مع التنظير الوظيفى الذى قدمة إميل دوركيم، وان كان قد اختار ان يسلك مسلكا معاكسا له. فعلى حين يبدا دوركيم من المجتمع الذى له حاجات اساسية على البشر ان يعملوا جاهدين على اشباعها، نجد ان برنسلاو مالينوفسكى يؤكد على الحاجات الفردية

بإعتبارها الأساس والقاعده وان اشباعها يساعد على تشكيل الثقافة والمجتمع. على هذا النحو نجد ان برنسلاو مالينوفسكى قد تحاور مع أنساق الأفكار السابقة عليه رفض فيها بعض قضاياها، واختار أخرى ووافق عليها، ومن هذا التفاعل الايجابى والسلبى على السواء برزت نظريته، وهو ما نعرض له تفصيلا من خلال استعراض علاقته بالاتجاهات الفكرية السابقة عليه.

أولاً: مالينوفسكي علي خريطة التنظير الأنثروبولوجي:

حينما يسعى الباحث العلمى عادة إلى التعرف على الطبيعة الجوهرية لقضية أو واقعة تدخل فى بناء علمه، فإنه يواجه فى هذا المسعى بكثير من المعوقات، التى قد يصل تعددها وتنوعها إلى درجة من التعقيد بحيث تجعل الأمور مختلطة عليه، ويصبح أمام خيارين، فأما أن يتغلب على هذه المعوقات فيتحقق الفهم وأما أن تتغلب عليه فيستعصى عليه، ويصبح على بناء العلم تلقائياً أن يلقى تبعه فهم هذه القضية على باحث آخر يحاول نفس المحاولة أو يدفع الباحث إلى محاولة جديدة حتى يتحقق النجاح.

نؤكد على العبارة السابقة بسبب المعالجات العديدة التى تناولت أفكار برنسلاو مالينوفسكى، كأبرز رواد الاتجاه الوظيفى بالبحث والتحليل. حيث وقعت هذه التحليلات فى أخطاء كثيرة، ترجع أحياناً إلى أنها تكون مفتقدة الرؤية الواضحة للخطوط الأساسية التى تتطور وفقاً لها النظرية السوسيولوجية، أو أنها بجهد إرادى ولغرض ضمنى تورد الحقائق منفصلة عن إطارها البنائى، وقد لا تقف عند هذا الحد بل تتجاوزه إلى خلق روابط وهمية وأطر خيالية لهذه الحقائق. وهنا يصبح على الباحث أن يبذل جهداً للرد على هذه المحاولات وتفنيدها، ثم جهداً آخر لتوضيح الإطار الحقيقى أو البناء المعرفى الذى ترتبط به هذه الحقائق إرتباطاً بنائياً وظيفياً فاعلاً.

ويصبح علينا استنادا إلى ذلك أن نناقش تلك المحاولة التى تحاول ربط نشأة النظرية الوظيفية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بحركة أيديولوجية استعمارية قادها المجتمع الإنجليزى تجاه المستعمرات. ثم علينا أيضاً أن نوضح ما هى المصادر المعرفية لهذا الاتجاه فى الأنثروبولوجيا عند مالينوفسكى كأول رائد وظيفى، إضافة إلى أن علينا أن نوضح قضاياه الأساسية أو مقولات إطاره التصورى بهدف تأكيد الرابطة المنطقية بين هذه المقولات، وبين القضايا الأساسية التى تشكل مضمون مصادره المعرفية. ويتأكد أثناء ذلك ضمنياً ارتباط أو انبثاق الأفكار النظرية عضوياً عن البناء المعرفى للنظرية السوسيولوجية وليس بتوجهات أو أفكار أيديولوجية عارضة تلك التى قد تؤكد على انفصال الإنسان عن الطبيعة، ومن ثم فهو لا يخضع لقوانينها، إلا أنه من الواضح أن الأنثروبولوجيا كما هى عند مالينوفسكى تسبح على هذه الخطوط الفاصلة بين هذه التيارات[1]. هذا إلى جانب أن الفكر الأنثروبولوجى قد قدم المعطيات الإمبيريقية التى استندت إليها مختلف التيارات الفكرية فى هذه الآونة فى البرهنة على قضايا معينة كالمثالية والوضعية والدارونية، والماركسية. بل أنها قد أسهمت بقدر كبير فى إبداع إميل دوركيم للنزعة السوسيولوجية، وكذلك التصور البنائى الوظيفى فى علم الاجتماع، وبذلك تكون الأنثروبولوجيا قد أسهمت بنصيب كبير فى تحقيق ثورة علمية فى بناء نظرية علم الاجتماع ذاتها.

وبناء على هذا الدور الذى قامت به واستنادا على هذا التواجد المتزامن مع أهم الاتجاهات، الفكرية فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، قام ارتباط عضوى بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع من حيث التصور والمنهج، ذلك حدث على ساحة النظرية التطورية، والأطر التحليلية الأخرى، وكذلك نظريات العوامل فى علم الاجتماع، إضافة إلى النزعة التطورية

والإنتشارية فى الأنثروبولوجيا. إستناداً إلى كل ذلك بدأت الأنثروبولوجيا ترتبط فى عملها بأسس المنهج العلمى من حيث امتلاكها للنظرية أو الإطار النظرى، ثم المنهج الملائم، وتخلت فى مقابل ذلك عن التأملات النظرية والتضمينات الأيديولوجية. وبذلك نستطيع أن نوافق مع إيفانز بريتشارد حينما يؤكد أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية الصحيحة لم تبدأ إلا فى القرن التاسع عشر(2). ولتوضيح العلاقة العضوية بين الأنثروبولوجيا والنظرية الاجتماعية على هذا النحو، فإن ذلك يعنى رفض أى محاولة لتأسيس ميلاد منفصل لأى من النظريات الاجتماعية والأنثروبولوجية فى من العلمين، وثانياً رفض محاولة التأكيد على وجود علاقة عضوية بين نشأة النظرية الوظيفية فى الأنثروبولوجيا وموقف أيديولوجى معين، فى هذا الإطار سوف نبدأ بمعالجة الرفض الثانى ثم ننتقل إلى الأول.

فيما يتعلق بإفتراض وجود علاقة عضوية بين النظرية الوظيفية والأيديولوجيا، فقد تصدى لهذا الافتراض ألفن جولدنر فى مؤلف حديث له، حيث أكد فيه على أن قيام النزعة التطورية فى الأنثروبولوجيا إرتبط بسيادة وقوة الإمبراطورية البريطانية، بحيث منحها ذلك نوعاً من الثقة والإعتقاد بأنها تشغل قمة التطور الحضارى الذى تشغل الشعوب البدائية بما فيها مستعمراتها بدايته. وقد دفع ذلك إلى التأكيد على النزعة التطورية فى الأنثروبولوجيا وازدهار هذه النزعة ومحاولتها رسم مراحل للتطور الحضارى ابتداء من نقطة صفر الشعوب البدائية وحتى أوج الحضارة الغربية متمثلة فى حضارة الشعب الانجليزى. فى هذا الإطار ينسب ألفن جولدنر ظهور الاتجاه الوظيفى فى الأنثروبولوجيا إلى بناء أوربا العاطفى فى المرحلة التالية للحرب العالمية الأولى، وإلى الوهن والتقلص الذى أصاب كيان الإمبراطورية البريطانية الأمر الذى تطلب أن لا تظهرفقط تفوقها الحضارى على

مستعمراتها ولكن أن تبذل كافة الجهود للحفاظ على تبعية هذه المستعمرات بكل الوسائل ومن هذه الوسائل أن تطرح الوظيفية الأنثروبولوجية، لكونها تهتم بتوازن واستقرار النسق، ولكونها ترفض التغير، وحتى تكون أداة تساعد رجال إدارة فى حكم هذه المستعمرات[3].

ويتضح من التحليل الدقيق للفقرة السابقة ألمغالطات المتعلقة بوجود هذه العلاقة الوهمية. أولها أن النظرية التطورية، هى نزعة سادت فى الفكر السوسيولوجى والأنثروبولوجى فى أوربا قبل نشأة عصر الإستعمار بل وقبل قيام الثورة الصناعية ذاتها، يتضح ذلك من اعتماد كثير من الكتابات السوسيولوجية على التطورية الأنثروبولوجية نذكر فى هذا الصدد الوضعية، والماركسية، والدارونية والدوركيمية. وعلى ذلك فإن النزعة التطورية كانت سابقة على تواجد عظمة الإمبراطورية البريطانية، وأن ضعف ووهن الثانية لم ينعكس على تقلص الأولى، بل أن النظريات الدورية والتطورية وجدت حتى قبل ميلاد الثورة الفرنسية وما تبعها من ثورة الأفكار متمثلة فى كتابات واسهامات الوضعية الفرنسية، ثم فى النزعة العضوية البيولوجية عند سبنسر، ثم تكاملت إلى حد كبير عند إميل دوركيم، وبذلك إمتلكت النزعة التطورية تراثاً تاريخياً بعيداً يسبق بلا شك وهن وضعف الإمبراطورية البريطانية وإقتراب مستعمراتها من الثورة. حينما قامت الحرب[4]. أما عن دفاعه عن ما هو موجود كدفاع ضمنى عن الإستقراطية، يلغيه تأكيد مالينوفسكى على أن السكون والاستقرار والرومانسية التى عهدناها فى مجتمع التروبرياند قد بدأت تتغير وتحل محلها أوضاعاً جديدة، فمكانة الزعيم قد اهتزت لأنه لم يعد يتسلم الهدايا من اللؤلؤ الذى أقام له الرجل الأبيض مصانعاً فى هذه البلاد[5]. وأن كثيراً من سمات هذا المجتمع قد تغيرت نتيجة لذلك، وأنه قد استعان بالإخباريين وما هو باق من مجتمع ما قبل التغير لكى يحاول أن

يرسم بها صورة لنظام الكولا الذى سمع عنه من الرحاله البيض، هذا إلى جانب أنه عالج قضايا النسق المتغير فى مجتمع أفريقيا استنادا إلى معايشة الأخباريين لتفاعلات التغير.

يبقى بعد ذلك أن نوضح الروابط الحقيقية التى تربط فكر مالينوفسكى بتراث النظرية السوسيولوجية والأنثروبولوجية السابق عليه. فنحن نعرف أن أميل دوركيم قد قاد حواراً مع مواقف فكرية عديدة، تمكن بعدها من أن يقدم تصوراً مبدئياً لطبيعة التحليل البنائى فى علم الاجتماع، وأعطى بذلك دفعة هائلة من التنظير الذى أحتاج إلى إختبار إمبيريقى حتى تصبح الدورة المعرفية كاملة. فى هذا الإطار فقد كان الجهد الأساسى المطلوب من مالينوفسكى أن يحدد بوضوح ملامح هذا التصور البنائى الوظيفى، وأن يجرى اختبارا امبيريقيا له، وأن يكمل تحليلاً داخلياً للنسق، وبذلك يتكامل مع اسهامات دوركيم، ويضيف تكاملاً جديداً فى تاريخ البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، وهى المهمة التى كان سيؤديها لو قدر له الحياة أكثر على ما يقول تالكوت بارسونز. إلا أن الحقيقة كانت غير ذلك، فقد كانت لمالينوفسكى محاوره المعرفية التى من بينها النزعة البنائية الدوركيمية، فهو مثل اى عبقرى رائد، يحب دائماً أن يؤسس بناء نظرياً متميزاً عن الآخرين. ومن ثم نجده قد صاغ نموذجاً فكرياً يقع عند الحد الفاصل بين الإمبيريقية والتنظير على ما يؤكد تالكوت بارسونز و إدموند ليش. فنتيجة لإنتمائه لمحاور معرفية عديدة فإنه لم يتح للنزعة البنائية الدوركيمية من بينها أن تؤثر بفاعلية، ومع ذلك فإننا نجده فى نهاية حياته وفى كتابة نظرية علمية عن الثقافة، يتحرك إلى موقف قريب من النزعة الدوركيمية بتأكيده قدر كبير من الحتمية لبناء الثقافة، وبذلك نجده يتوافق

– ولو عند موقف وسط – مع متطلبات النظرية البنائية الوظيفية وهو ما يدخل فى إطار إجابتنا على الرفض الأول.

بالإضافة إلى ذلك فقد تعرض برنسلاو ومالينوفسكى لتأثير تيارات فكرية عديدة يساعد تحديدها على تحقيق قدر كبير من الفهم والإدراك للمقولات الأساسية لهذا الإطار. وبالنسبة لعالم باحث كمالينوفسكى نجد أنه قد تعرض لتراث كان فى متناوله. ففى ذلك الحين اصبحت الدوركيمية نزعة واضحة المعالم بعد أن انتصرت فى حوارها مع أطر تصوريه ومحاوره معرفية سابقة عليها، أو عاصرت وجودها. وكانت الماركسية ما زالت تقف قوية على أقدامها بعد أن ألهمت أول الثورات الاشتراكية. وكانت النزعة النفعية الفردية ما زالت لها بقاياها، إلى جانب البراجماتية والآدائية، هذا إلى أنه قد كانت هناك أطرا تصوريه فى الفكر الأنثروبولوجى لها فاعليتها على نحو ما أوضحت تمثلت فى الاتجاهات التطورية والإنتشارية، بالإضافة إلى كثير من حقائق المعرفة التى أتيحت له والتى قد لا تشكل أطرا أو اتجاهات متماسكة، وذلك بسبب حالة الوفرة التنظيرية التى بدأت تأخذ مكانها فى الفكر السوسيولوجى والأنثروبولوجى خلال هذه الفترة.

ثانيا: علاقة النزعة البراجماتية بالإتجاه الوظيفي:

الحقيقة أنه بالتحليل الدقيق للمقولات الأساسية للفلسفة البراجماتية الآدائية من ناحية، والوظيفية المالينوفسكية من ناحية أخرى، فإننا نكتشف أن هناك وجه تشابه صارخ بينهما، وكأن الأخيرة ليست الا نقلا حرفيا لبعض من مقولات الأولى، وتضمينها فى إطار نظام عقلى جديد. فقد تصادف أنه حينما جاء مالينوفسكى إلى إنجلترا سنة 1910 لدراسة علم الإجتماع تحت رعاية وسترمارك وهوبهوس، أن كانت الفلسفة البراجماتية فى أوج إزدهارها على يد وليم جيمس، ومن لحظتها بدأت البراجماتية

تمارس تأثير فاعليتها فى تشكيل النموذج الفكرى لبرنسلاومالينوفسكى الذى كان مهيئاً لإستيعابها ضمن ما إستوعب من أفكار العالم المتحدث بالإنجليزية[6].

فى هذا الاطارتحتوى الفلسفة البراجمانية على فكرتين رئيسيتين، الأولى أن توفر الصدق المنطقى لأى قضية ما. بمعنى أن وصفها بالصدق أو الكذب ليس كافياً من وجهة النظر البراجماتية، تلك النظرة التى تؤكد على أنه لا يمكن أن تفهم أية قضية إلا من خلال سياقها التى هى جزء منه. إنها لا تكون قضية إلا بمقدار ما تؤدى إلى انتاج عديدة من القضايا المتتابعة. فالقضية دائماً خطوة وسطى أو هى دائماً وسيلة إلى ما بعدها[7]. وهى بهذا ترفض فكرة نزع حقيقة ما عن إطارها وتؤكد على أن الفهم الحقيقى يتحقق حينما تدرك هذه الحقيقة فى حالة ترابطها مع غيرها من الحقائق، أى أن إدراكها يجب أن يكون إدراكاً كلياً. اما الفكرة الثانية فتتضح من موقفها من المعانى الكلية أو الأفكار المجردة، تلك القضية التى تعرض لها المنطق الفلسفى، وكانت موضع نقاش عبر تاريخ النظرية الميتافيزيقية. إذ كانت هناك ثلاثة مدارس وقفت منها مواقف متباينة، وجاءت البراجماتية كمدرسة رابعة لها رؤيتها المختلفة، التى تذهب إلى أن الكيان المنطقى لهذا الجانب المجرد لا يكتمل إلا إذا كان وسيلة آدائية تهدى الإنسان فى حياته السلوكية والعملية. إذ لا جدوى فى أن تظل طريقة السلوك المجردة قائمة بغير أن تتمثل فى مواقف سلوكية بعينها[8]. ومن هنا فإن عناصر هذا الكل لا بد وأن تكون ذات نفع آدائى، وهى تشكل أيضاً وجوداً موضوعياً خارجياً عن الأفراد الذين تؤدى لهم نفعاً آدائياً معيناً. وكأى إتجاه فكرى يسهم فى بناء مقولاته كثير من الرواد، نجد أن البراجماتية أقامها أساساً تشارلس بيرس، ثم وليم جيمس، وأخيرا جون ديوى. إلا أن إسهامات هؤلاء الرواد تباينت فيما بينهم،

فبينما يعد الفيلسوف الأمريكى تشارلس بيرس هو المبدع الأساسى للفلسفة البراجماتية التى ليست إلا طريقة جديدة فى الإستنتاج المنطقى، والتى تعد من أهم الروافد التى أسهمت فى قيام الوضعية المنطقية فى القرن العشرين، نجد أن وليم جيمس ليس إلا منقحاً لأفكار تشارلس بيرس، بل إنه على ما يذهب «ليش» قد أساء إلى هذه الأفكار وشوهها. لأن وليم جيمس لم يكن أساساً ذو عقلية فلسفية، بل كان مبشراً ذو أسلوب دعائى، ومن ثم فقد إتخذت الفلسفة البراجماتية على يدية شكلاً يميل إلى العقيدة منها إلى الفلسفة، وإعتبرت البراجماتيةعنده عقيدة و موجها عملياً للسلوك السليم. وقد أدى تشويه وليم جيمس لأصول برجماتية بيرس أن سمى الأخير نفسه بعد سنة 1906 براجماتاكيا Progmaticist فهو وأن كان إسماً قبيحاً للغاية – على ما يؤكد – إلا أنه يحميه من المشوهين لأفكاره(9)، قاصداً بذلك وليم جيمس.

ويؤكد «ليش» أن وظيفية مالينوفسكى كانت أقرب إلى براجماتية وليم جيمس منها إلى برجماتية بيرس. التى تمثلها فى علم الإجتماع وظيفية دوركيم. حيث كانت هناك مسحة دعائية فى وظيفية مالينوفسكى كالحال عند جيمس، وأيضاً لأن وليم جيمس كان يفتقد القدرة على التجريد كما هو الحال بالنسبة لمالينوفسكى إذا قورن باميل دوركيم وموس وراد كليف براون. وتتضح هذه المماثلة القوية بين مالينوفسكى وجيمس فى الصورة التى رسمها جالى W. B. Callia بقوله (إنه إبتداء من الفكرة المعقولة فى أن رغبات بيولوجية معينة، تكمن وراء أو تؤدى إلى ظهور الشروط الضرورية لكل تفكيرنا فإنه، «أى جيمس» يستمر حتى ينطق بالفكرة الأكثر إثاره فى أن الوظيفة الأولى للفكر هى إشباع رغبات معينة فى الكائن العضوى، وأن أصالة وحقيقية هذا التفكير تكمن أساساً فى كونه يشبع هذه الرغبات، ثم

يقول «ليش»، إننا إذا إستبدلنا السلوك والفعل بالتفكير والفكر فى هذه الفترة، لوجدنا بين يدينا بسهولة جوهر الإتجاه الوظيفى عند مالينوفسكى[10].

وتتجلى المسحة البراجماتية فى وظيفية مالينوفسكى حينما يؤكد الأخير أن المدخل الوظيفى يتطلب منا أن نحدد الدلالة البراجماتية للشئ. وتتحدد هذه الدلالة، بل ووجود الشئ نفسه عن طريق معرفة الأثر الذى ينتجه فى الواقع الثقافى[11]. ثم يتحرك مالينوفسكى إلى نقد جيمس فريزر لأنه لم يتساءل عن براجماتية الشئ فيؤكد أن النقد القاصم الذى يمكن أن يوجه إلى تحليل فريزر القيم للسحرا يتمثل فى أنه قد ركز إنتباهه أساساً على الشعائر والتلاوات، ولم يكن على وعى كاف بأن السحر هو ما يفعله السحر. ومن هنا فإن الإنجاز الشعائرى لا يمكن أن يدرك كلية إلا فى علاقته بالإنجاز النفعى البراجماتى المضمن فيه والمرتبط به بصورة جوهرية. كذلك يعانى تحليل تايلور للأنيميزم من حقيقة أنه يعتبر البدائى فيلسوفاً متعقلاً، غافلاً عن أن الدين، بدائياً كان أم متحضراً، هو جهد إيمانى منظم من أجل أن يبقى الإنسان على إتصال والقوى الغيبية، حتى يستطيع تسخيرها وترضيتها بالإستجابة لأوامرها[12].

ولعل معرفة هذا التأثير البراجماتى على وظيفية مالينوفسكى يفسر لنا نظرته إلى عقلانية ولا عقلانية السلوك البدائى. حيث كانت هذه التفرقة من القضايا التى شغلت هربرت سبنسر، وليفى بريل، ودوركيم وكذلك النظرية الماركسية. على خلاف ذلك نجد أن هذه القضية لم تشغل مالينوفسكى، وذلك لأنه إهتم أساساً بأدائية السلوك دون النظر إلى عقلانيته أو لا عقلانيته، على أن تقييم هذه الآدائية كان دائماً داخل إطار متكامل تؤدى دورها فيه لأنها تعد جزء منه. وقد أوقعته عدم القدرة على التجريد فى معضلة معرفية قاتلة، تتمثل فى أنه لا يؤكد فقط على أن كل وحدة أو نظام أو سمة لا بد وأن

تؤدى وظيفة محددة، وهى وجهة نظر يشاركه فيها دوركيم وراد كليف براون، بل إننا نجده ينحرف عنهما فى أن هذه الوظيفة لا بد وأن تكون وظيفة عملية، بمعنى أن اى وحدة موجودة فى إطار ما، كالكلمة فى بناء اللغة لا بد أن تكون لها وظيفة خاصة بها. فالكلمة كوحدة ضمن اللغة تؤدى وظيفة أساسية هى الإتصال وإتاحة التفاعل، إلا أن الكلمة أو الجملة لها وظيفة عملية أخرى غير الإتصال وهى وظيفتها كأداة لها فعل مباشر، كان تكون جزءاً من عملية الإنتاج البدائى الذى يتحقق مستنداً إلى إيقاعات صوتية تواصلية[13]. فى هذا الإطارتصبح الوظيفة الرئيسية أو الهامة للغة هى الوظيفة الثانية ذات الطبيعة العملية، وليست فقط الأولى ذات الطبيعة التواصلية. والحقيقة أنه بتصوره الذى قدمه فى الفقرة السابقة لآدائية أى وحدة إجتماعية، ذلك التصور الذى يقترب بشدة من الواقع الإمبيريقى، الذى يبتعد للغاية عن أية معانى مجردة، يغفل عناصر أساسية فى كل من البراجماتية وحتى الوظيفية التى سبقته. يتضح ذلك من إننا إذا حللنا حالة التفاعل الأدائى فى البراجماتية لوجدنا أن هناك كيانين منفصلين ولو بصورة مجردة. الأول يضم جمعاً من الوحدات تؤدى وظائف لجمع آخر من الأفراد. على أن هذا الجمع الأول لايتشكل من وحدات منفصلة بل من وحدات يسود بينها نوع من الترابط والتساند، أما الجمع الآخر فهو الأفراد فى البراجماتية، وهم الأفراد أيضاً فى الوظيفية المالينوفسكية، لكنه الكل الجمعى أو الجماعة أو المجتمع فى التصور الدوركيمى، أو التصور الذى قدمه راد كليف براون. ارتباطا بذلك نجد أن مالينوفسكى قد إفتقد عنصراً أساسياً من البراجماتية، وهو العنصر الذى يؤكد على تساند وترابط الوسائل وآدائها الوظيفى فيما بينها كوجود مستقل، كماإفتقد عنصراً آخر من البنائية الفرنسية هو إتجاه الآداء إلى كل جمعى يعلو على الفرد. ويكمن سبب ذلك فى أن

مالينوفسكى كان إمبيريقياً يهتم بالسلوك الملاحظ فى مجتمع الدراسة،حيث نجده لم ير فى المجتمع إلا وحدات أو وسائل ذات آداء أو وظائف تفيد فى إشباع حاجات أفراد المجتمع.

يبقى بعد ذلك أن نؤكد أنه إذا كانت البراجماتية قد شكلت مصدر الإلهام الأساسى لإطار مالينوفسكى التصورى، فإنها قد الهمتهايضا بالتكنيك المنهجى الملائم. إذ قادة إرتياب وليم جيمس فى إمكانية أن يكون لأى معانى مجردة وجود بين الوقائع القابلة للملاحظة، إلى تأكيده الدائم على الملاحظة الميدانية كتكنيك ميدانى مارسه وأوصى به الباحثين، بل أن هذا التأكيد على الملاحظة والحقائق موضع الملاحظة، وإفتقاده القدرة على التجريد أو عدم الرغبة فيه – تأثرا بوليم جيمس وليس تشارلس بيرس –، جعله ينظم أفكاره النظرية بطريقة يستحيل معها تماماً إجراء المقارنة السوسيولوجية[14].

ثالثا: مالينوفسكي والبنائية الوظيفية عند إميل دوركيم:

فى إطار تحليله السوسيولوجى طور إميل دوركيم تشيؤاً واقعياً موضوعياً لفكرة الضمير أو العقل الجمعى، كما أوضح أن هذا العقل الجمعى يشكل بمعنى ما مضمون بناء الجماعة، أو هو هذا البناء ذاته. كما أكد على وجود العلاقة الآدائية المتفاعلة بين هذا الضمير الجمعى – وهو الذى يعد مرادفاً لبناء الجماعة – وبين فرديات الجماعة الواقعية كالأفراد والظواهر والتيارات التى قد تنتشر فى حياة الجماعة. بالاضافة إلى ذلك فقد أكد إميل دوركيم على أن كل ما هو متضمن فى حياة الجماعة يتلخص فى تفاعل يحكمه مبدأ أن الكل يطرح حاجات ومطالب إستمراريته وحيويته، وأن على الأجزاء أشباع هذه الحاجات والإستجابة لهذه المطالب. فى هذا الأطار قد توجد وقائع أو ظواهر لا يفهم الأفراد معنى لوجودها،وفيما يتعلق بهذه الوقائع أو

الظواهر يؤكد دوركيم أن معناها يكمن فى المستوى الإجتماعى المتعلق بحاجات الوجود الجمعى أساساً. ومن هنا فسر دوركيم الجريمة والإنتحار والأنومى تفسيراً سوسيولوجياً أوضح فى نطاقه لكافة الباحثين من بعده طبيعة المدخل السوسيولوجى وأسلوبه فى تناول وقائع المجتمع بالدراسة، كما أكد على أن الأداء الوظيفى على مستوى بناء الجماعة أساساً وليس على مستوى الفرد، وبذلك إبتدع معياراً موضوعياً للحكم على أخلاقية الظاهرة أو لا أخلاقيتها، على سلامتها أو إعتلالها.

وحسبما يذهب التنظير الإجتماعى نجد أن هذا التصور الدوركيمى كان نتاجاً لتفاعل وتداخل وضعى مثالى،سوسيولوجى أنثروبولوجى وفلسفى. اضافة إلى النزعة الفردية لهربرت سبنسر. وهى التيارات التى تعرض لتأثيرها إميل دوركيم وقدم لنا مدخله السوسيولوجى نتيجة لتفاعله مع هذه التيارات. غير أن السؤال الذى نطرحه هل معنى ذلك أن النزعة الفردية إنتهت إلى غير رجعة ؟ الاجابة على ذلك تذهب إلى أن البراجماتية بالنزعة الفردية حيث نجدها تؤكد أن كل المعانى، مجردة أو غير مجردة، يجب أن تهدف إلى توجيه السلوك الفردى نحو الإشباع السليم لحاجاته البيولوجية كما إتضحت فى وجهات نظر بيرس، ووليم جيمس، بل ظهرت الفلسفة الوجودية – وهى أيضاً نزعة فلسفية تقف ضد كل ما يطمس الوجود الفردى، حيث يؤكد مضمونها على ضرورة منح الفرد إمكانيه صياغة قداره، بشرط أن لا تتعدى هذه الصياغة حدودها فتضر بحرية الآخرين فى صياغتهم لأقدارهم.

معنى ذلك أن هذه الفلسفات شكلت أطرا لتطوير الأفكار النفعية والفردية وانبعاثها إلى الحياة ثانية .وارتباطا بذلك شكلت هذه الفلسفات مناخاً معرفياً عاصره برنسلاو مالينوفسكى. إلا أنه لعدم قدرته على التجريد فإننا نجده قد

رفض فى إميل دوركيم ما كان يجب أن يكون موضع دراسة وإختبار، إذ نجده يرفض أول ما يرفض آية مسحه ميتافيزيقية فى التفكير ويعتبر التشئ والتموضع الذى منحه اميل دوركيم للجماعة، يعد فى أساسه جهداً ميتافيزيقيا، أسسه فلاسفة قبعوا يفكرون فى مكاتبهم بعيداً عن واقع البشر. فهو يؤكد أنه نتيجة لهذه الصياغة الواقعية المتشيئة للضمير الجمعى،وجدنا أن إميل دوركيم لم يرفض فقط مجرد إستخدام التأملات النفسية الإستبطانية كوسيلة توفر له فهم السلوك البشرى، بل تجاوز ذلك فرفض أى إرجاع للسلوك البشرى إلى أسس بيولوجية، وبالغ فى طمس ما هو فردى، ونتيجة لذلك أعطى الظواهر الإجتماعية وجوداً مستقلاً عن الوجود الفردى[15]. وبذلك يتقدم مالينوفسكى إلى أهم رفض على الجبهة الدوركيمية وهو الوجود الجمعى للمجتمع فيؤكد أنه بالملاحظة الواقعية لم يتمكن من مشاهدة هذا الضمير الجمعى فى مجتمع التروبرياند، بل إننا نجده يؤكد أيضاً على أن معظم الدارسين الذين حللوا السحر والدين والمعرفة البدائية والميثولوجيا، قد لجأوا فى ذلك إلى إستبطان النفس الفردية، ثم أن معيار الصدق لأية نظرية يجب أن يكون ما تكشف عنه الملاحظة الميدانية[16]. وبهذا الرفض السلبى لأهم أفكار أميل دوركيم يؤكد برنسلاو مالينوفسكى فشله فى فهم أعظم الإسهامات التى قدمها إميل دوركيم لنظرية تحليل الإنساق الإجتماعية[17].

ونتيجة لرفض مالينوفسكى لجوهر المشروع النظرى لإميل دوركيم، فقد كان من الضرورى أن تقع سلسلة من الرفوض التى تترتب على ذلك والتى تتسق منطقياً مع الرفض الأول. ويتمثل أول هذه الرفوض فى مفهوم الآداء الوظيفى، فنحن نعرف أن مالينوفسكى قد إستعار مفهوم الوظيفة الإجتماعية من دوركيم، إلا أن إستخدامه له كان بأسلوب مختلف. فبينما هيتتحدد بالنفع أو الفائدة الإجتماعية عند إميل دوركيم إذ يؤكد «أن وظيفة أى حقيقة

إجتماعية يجب أن نبحث عنها دائماً فى صلتها بغاية إجتماعية»، نجد أن برنسلاو مالينوفسكى يستبدل الغاية البيولوجية بالغاية الإجتماعية، ويقع بذلك فى خطأ منهجى مؤداه تحميل نموذجه النظرى بأحكام القيمة، وليس بالمعايير الموضوعية للحكم، تلك التى إبتدعها إميل دوركيم، والتى تتم بالنظر إلى طبيعة آدائها الإجتماعى. فقد كان دوركيم يحاول وهو يدرس علاقات الظواهر التعرف على النتائج الإجتماعية، ويحكم عليها بأنها أخلاقية أو لا أخلاقية بمقدار درجة تلاؤمها وتساندها مع الظروف الإجتماعية السائدة، بينما نجد أن الوظيفة عند مالينوفسكى تظهر لكى تشبع حاجات الكائن العضوى البيولوجية، وبذلك تصبح الوظائف ذات نفع إيجابى غرضى، ويستعان فى تحديد طبيعة وقدرة هذا الآداء بالأسلوب الحدسى[18].

بذلك يكمن الإختلاف الرئيسى بين إميل دوركيم وبرنسلاو ومالينوفسكى فى أن الأول يعتبر الحاجات متعلقة بالمجتمع والكل الإجتماعى وأن الأفراد فاعلين ذويجهود أو آداء وظيفى يشبع هذا الكل ضمن وحدات البناء الأخرى التى عليها ان تقدم هذا الإشباع الوظيفى. بينما هى عند الثانى – أى مالينوفسكى – وظائف تتعلق بالحاجات البيولوجية للكائن الفرد، وأن المجتمع والثقافة والنظم ما هى إلا وسائل لها آداء وظيفى تشبع به هذه الحاجات البيولوجية الفردية. وبذلك تصبح العلاقة بين متغير الحاجات والوظائف التابعة وبين تلك البناءات التى تنتمى إليها هذه الوحدات ذات الوظائف الآدائية متناقضة فى إتجاه الحركة الرئيسية بين إميل دوركيم وبرنسلاو مالينوفسكى. ويكمن سبب هذا التناقض فى أن نقطة البدء عند إميل دوركيم، بل وراد كليف براون، كانت النزعة البنائية التى بدأت عند منتسكيو، وأفكار التساند والوظيفة والبناء[19]. بينما نقطة الإنطلاق بالنسبة لمالينوفسكى تكمن فى الفردية النفعية لهربرت سبنسر[20]، وكذلك الفلسفة البراجماتية اضافة إلى

النزعة الإمبيريقية الإنجليزية، وإعتباره أن كل ما هو غير فردى إنما هو جهاز لإشباع الحاجات البيولوجية للفرد، وأن ما هو ملاحظ فى الواقع يجب أن يشكل أساس معرفة الإنسان.

الا أن هناك خلافاً آخر بينهما حول ما يوفر التضامن الإجتماعى للجماعة. فبينما يرى اميل دوركيم أن ذلك يتمثل فى العواطف والقيم المشتركة كما هى الحال فى نموذج التضامن الآلى، والتساند البنائى والإسهام الوظيفى المتبادل بين نظم وإنساق نموذج التضامن العضوى، يرى مالينوفسكى أن ما يوفر هذا التضامن هو الأنماط العملية للتبادل التى عن طريقها تتم مقايضة موضوعات الإشباع. ويستتبع ذلك بتأكيده أن العقاب فردى وليس جمعى كما أكد إميل دوركيم، فهو جمعى عند دوركيم لأن الذى أضير من فعل المجرم هو بناء الجماعة، ومن ثم فرد الفعل المتضمن فى العقاب يمارسه هذا البناء أيضاً. ويختلف الأمر بالنسبة لمالينوفسكى الذى أكد على أنه لم ير هذا الوجود الجمعى فى دراساته الميدانية. وأن الجماعة لا تتفق لتقف على عداء جماعى ضد هؤلاء الذين انتهكوا ناموسها الأخلاقى، بل إن ما نراه هو رد فعل يقوده أفراد معينون عانوا بصورة مباشرة من إنتهاك بعض مصالحهم نتيجة لسلوك المجرم[21].

تبقى حقيقة سوسيولوجية هامة تتمثل فى أن مالينوفسكى وليس إميل دوركيم هو الذى درس المجتمع دراسة واقعية متمثلة فى دراساته لكولا التروبرياند ولتغير أفريقيا، ونتيجة لذلك نجد أنه كان يجب أن يعطينا تصويراً إجتماعياً لبناء النسق. حيث يبدو بناء النسق عنده ذو صورة مشوهة، فهو يفترض بناءين، والثقافة ومكوناتها من الناحية المقابلة الأفراد وحاجاتهم البيولوجية من ناحية الأخرى، ثم هناك خطوط للصلة متوازية دائماً بين مكون ثقافى معين وحاجة بيولوجية متصلة به. وتظل الثقافة بل وبناء

الجماعة مرتكزة دائماً على تواجد هذه الخطوط المتوازية. وإذا كان الفرد فى المجتمع يحيا عادة إلى جوار أفراد آخرين وأن لكل فاعل فعله الذى قد يتناقض أو يتواكب وأفعال الآخرين. ومن هنا ينشأ مستوى من التفاعل الإجتماعى، تصبح ظواهر التغير والصراع، والقيم والمعايير وظيفة أو ناتجة عنه، ويشكل ذلك كله طبيعة النسق الإجتماعى، الذى إفتقد مالينوفسكى التصور المجرد له فى نظريته البيولوجية(22). وقد إنعكس إفتقاد القدرة على تصوير التفاعل الإجتماعى فى نسق برنسلاو مالينوفسكى على عدم قدرته على تصور ظواهر كالصراع والتغير. وذلك لأن هذه الظواهر هى نتاج لتفاعل النسق وليست نتاج لتواصلات أو علاقات فردية يومية. وقد حقق دوركيم فى هذه الناحية نجاحاً تاماً، إذ قدم لنا تحليلاً سوسيولوجيا رائعاً لها حينما ربطها أساساً ببناء الجماعة وحالات الكثافة السكانية والإجتماعية فيها.

ويتضح إفتقاد مالينوفسكى لتصور الوجود الجمعى المنفصل عن الوجود الفردى من تفسيره لظواهر السحر والإحتفالات الشعائرية. فبينما ينظر إليها إميل دوركيم وراد كليف براون – من منظور سوسيولوجى – على أنها جهود تثير نوعاً من القلق والخوف والخضوع عند الأفراد للروح الجمعى الذى يطرح هذه المناشط لكى يؤكد التماسك والتضامن فى هذه المناسبات، يرى مالينوفسكى أن الوظيفة الأساسية للسحر كما لاحظها عند سكان جزر التروبرياند تتمثل فى تخفيف القلق والتوتر، حينما يكون البدائى أمام ما هو مجهول ومخيف وليس لديه الوسائل التكنولوجية التى يتمكن بها من السيطرة عليه. فهو يستخدم السحر حينما يمارس الصيد فى البحار العميقة ذات الأخطار القاتلة، تلك التى لا تتوفر للإنسان سيطرة عليها، وأيضاً فى رحلة «الكولا» ذات الأهمية الشعائرية، ولا يمارسه حينما يمارس الصيد فى

البحيرات المحلية الآمنة حيث يكون الإنسان أكثر سيطرة على الموقف[23]. وبذلك فهو يستبعد أى علاقة لهذه الممارسات ببناء الجماعة، ويؤكد ان العلاقة نراها موجودة أساساً بين هذه الظواهر والحاجات البيولوجية للأفراد.

بقى أن نتساءل هل معنى ذلك أن النزعة الدوركيمية لم يكن لها أى تأثير على أفكار برنسلاو مالينوفسكى؟ الحقيقة أننا نجد الكثير من التأثير، إذ يوجد مثلا ذلك التأكيد على الدراسة المتزامنة للنسق، وهو التأكيد الذى قال فيه دوركيم القول الفصل بدحضه للنزعة التطورية التى وقف منها نفس الموقف فيما بعد كل من راد كليف براون ومالينوفسكى. وبذلك فإن الدراسة الإمبيريقية المتزامنة لمجتمع التروبرياند كانت تحمل تأثيراً دوركيمياً، ولو أنها كانت فى جزء منها رفضاً مالينوفسكيا للتطورية ومداخلها فى الدراسة. غيرأن إفتقاد مالينوفسكى القدرة على التجريد وإرتباطه المباشر بالواقع سلبه إمكانية عقد المقارنات بين النماذج المجتمعية، تلك التى توفرت لدوركيم وشكلت قاعدة هجومه على النزعة التطورية، وطرحه للدراسة المتزامنة كبديل لها.

وإلى جانب أن برنسلاو مالينوفسكى قد إستعار مفهوم الوظيفة من دوركيم، فإن هناك ثمة موضع لإتفاق آخر بينهما، وهو الإتفاق الذى يكمن فى تحرك مالينوفسكى فى أواخر حياته، وبخاصة فى كتابه «نظرية علمية عن الثقافة» نحو منح الثقافة نوعاً من الإستقلال والحتمية عن الحاجات البيولوجية للأفراد. يتضح ذلك حينما يتحدث عن الثقافة من حيث كونها «فرض لنمط جديد من الحتمية المحددة على السلوك البشرى» وأن الإنسان لا يحتاج بسبب الحتمية البيولوجية، أن يصطاد بالرمح أو بالقوس والسهم أو بإستخدام السموم، أو الدفاع عن نفسه بالمأوى أو الدروع أو الأسلحة. غير أنه إذا إختيرت أى من هذه الوسائل، فذلك يرجع لأنها ترفع من إمكانية تكيف

الإنسان مع البيئة المحيطة، فإذا تم إختيارهاأو إنتقائها فإنها تصبح شرطاً ضرورياً للبقاء. ويصبح أي تلف دائم فى هذه الوسائل، أو فى التضامن الإجتماعى، أو فى تدريب الفرد عليها لتنمية قدراته، يمكن أن يقود على المدى الطويل ليس إلى تحطيم الثقافة فقط، وإنما إلى الفناء أو المرض المستمر، أو عطب الكفاءة بين الأشخاص ومن ثم إلى نقص السكان أساساً وفنائهم(24). وبذلك يجعل مالينوفسكى من التكيف والملاءمة البشرية وأيضاً آدائية الثقافة قنطرة عبور يتحرك عبرها من الحتمية البيولوجية بإتجاه الحتمية الثقافية، حيث أنه إذا تكيف الإنسان والثقافة، فإنه لن يستطيع إشباع حاجاته البيولوجية بدونها، وعلى هذا النحو تتحرك الثقافة وآدائها من متغير تابع إلى متغير مستقل له وجود قبلى سابق، وهو موقف يقترب قليلاً من النزعة الدوركيمية، وكثيراً من ضرورة أن يكون مالينوفسكى عالم ذو وجهة نظر ملائمة للأنثروبولوجيا وعلم الإجتماع، وليست للبيولوجيا أو الأحياء أو علم النفس.

رابعا: مالينوفسكي، والأطر النظرية في الفكر الأنثروبولوجي:

ظهرت النظريات التطورية والإنتشارية نتيجة لعملية تهجين بين أطر تصورية وممارسات إمبيريقية مكملة لها. فقد ألهمت التطورية مثلاً بتراث فكرى كبير بدأ بالنظريات الدورية، والدارونية على الجانب التنظيرى. أما البعد الإمبيريقى الذى ألهمها فقد تحقق نتيجة للدراسة المباشرة أو غير المباشرة لواقع مجتمعات غير المجتمعات الأوروبية، ومن هنا تحركت الرغبة نحو محاولة بناء تدرج خطى حضارى وتطورى إبتداء من حالة البداءة وحتى حالة الحضارة الأوروبية. وسواء تحركت هذه الرغبة بدافع إنسانى، مضمونه أن الإنسان بدائياً كان أم متحضراً إنما هو من تكوين وطبيعة واحدة، وأن الفارق أساساً فى الدرجة وليس فى النوع، أم أن هذه الرغبة

تحركت بدافع غير إنسانى يؤكد على إنقسام البشر إلى السادة والعبيد، أو إنقسامهم إلى منتجى الحضارة ومستهلكيها، فإن هذه الأحكام قد استندت إلى أسلوب منهجى يتمثل فى الإعتماد على الوثائق أينما وجدت والحفريات والآثار أينما توفرت، ثم يتم ملئ الفجوات الناقصة فى تصوراتهم، وقد كانت كثيرة، بإستخدام أسلوب إعادة التركيب للتاريخ الذى يظن أنه يمثل تاريخ العالم والشعوب، ونتيجة لذلك أصبح بين أيدينا ما يعرف بالتاريخ الظنى.

ينبثق من ذلك أن وجهات النظر التطورية تؤكد أولاً على تدرج حضارى أو مراحل حضارية واحدة ومتتابعة لا بد وأن تمر بها جميع شعوب العالم الموزعة الآن على درجاته المختلفة، أو على الأقل تلائم بعض أقاليمه متى توفرت الشروط[25]. وثانياً أن هذا التتابع الحضارى له أصل ثابت، وقد يتعلق هذا الأصل بالمجتمع ككل أو بإحدى ظواهره أو سماته. ومن ثم فقد أصبح من الضرورى لإنتقال المجتمع من مرحلة حضارية إلى أخرى أن تبقى به بعض السمات أو المنعزلات المعاصرة للمرحلة الأعلى باقية من المرحلة السابقة، وهى التى يطلق عليها مصطلح البقايا Survivals ، ذلك المصطلح المشكل الذى يعرفه جولدن فيرز «على أنه سمة ثقافية لا تتلائم مع وسطها الثقافى، فهى مستمرة أكثر من كونها تؤدى وظيفة، أوأنها تؤدى وظيفتها بطريقة لا تبدو متناغمة والثقافة المحيطة»[26]. بالاضافة إلى ذلك تؤكد الرؤية التطورية على الترابط مثلما تؤكد الوظيفية، لكن الترابط الذى تعنيه يتمثل فى تسلسل المراحل التطورية تسلسلا تتابعياً زمانياً وحضارياً.

وقد إشتركت الإنتشارية أيضاً مع التطورية فى الإستفادة من المعطيات الإمبيريقية، وكانت لها أطر تصورية مختلفة عنها كالمدرسة التحليلية، وأيضاً المدرسة الجغرافية الألمانية. فى هذا الاطارلا نستطيع أن نؤكد على نقطة بداية منعزلة للمدرسة الإنتشارية عن التطورية، لأن ذلك يجانب

حقائق الأمور، فقد ظهرت الإنتشارية فى أعقاب التطورية وإنبثقت عنها إيجاباً أو سلباً، ذلك لأن المدرستين حسب تأكيد برنسلاو مالينوفسكى ليستا متناقضتين، وإنما تدخلان إلى قضية الثقافة من زوايا مختلفة، ويبقى بعد ذلك أن الإمتياز الوحيد للنزعة الإنتشارية يتمثل فى درجة واقعيتها، وأيضاً فى حسها التاريخى ثم فى معرفتها بالمؤثرات البيئية والجغرافية[27].

وتتفق الإنتشارية مع التطورية فى تأكيدها على أصل السمة أو الثقافة، إذ نجدها تؤكد على أن الحضارة أو إحدى سماتها لا بد وأن يكون لها أصل تنبع عنه وتنتشر منه، كقول «برى» وعلماء المصريات أن مصر هى أصل الحضارة والتاريخ. ولتوضيح ذلك رسموا خرائط عليها توزيعات ومسارات لإنطلاق سمات الحضارة من عند المصريين أبناء الشمس[28]. وبرغم هذا الإتفاق نجد أن هناك إختلافاً بين كل من الإنتشارية والتطورية يرجع إلى واقعية الإنتشارية. إذ بينما تتصور التطورية الثقافة أو الحضارة على أنها عالمية تخضع لمراحل تطورية محددة، نجد أن الإنتشارية ليس لديها هذا التصور للإنتقال الكلى للثقافة برمتها، بل تتصورها دائماً منقسمة أو مجزأة إلى سمات أو مجموعات من السمات التى ليست بينها أى رابطة. اضافة إلى انهاعلى ما يؤكد دون مارتندال تعامل الثقافة على أنها كائن عضوى ميت[29]، تقسم وتقطع أجزائه وتضيف اليه كما تريد، دون إعتبار إلى وجود أى ترابط عضوى حى أو تساند وظيفى بين الأجزاء. ويصبح نتيجة لذلك أنه من الممكن أن نواجه فى بعض الثقافات تواجد سمة أو مجموعة من السمات ليست ذات وظيفة فى الثقافة الجديدة التى هاجرت إليها لأنها لم تحقق تلائماً بعد. وهى بذلك تتشابه والسمات البقايا فى الإطار التطورى[30]، وتطلق عليها الإنتشارية لفظ السمات المستعارة. بقى بعد ذلك أن نوضح أنه إذا كان الإتجاه التطورى قد إستخدم التاريخ كمجال عمل

وأسلوب يشكل خريطة تتم على مساحة معالجة الثقافة، فإن الإتجاه الإنتشارى قد إتخذ من الجغرافيا وتكنيكاتها والعالم وخريطته أسلوباً ومجال عمل ملائم. ونتيجة لذلك أنشأت الإنتشارية خرائط توزع عليها الثقافات وسمات الثقافات وإنتشارها عبر العالم بقدرة واقعية و إمبيريقية ملموسة.

ويسترعى إنتباهنا أن علاقة وظيفية مالينوفسكى قد تحددت فى جزء منها قبل ذلك من الناحية الزمنية بالفكر التطورى. إذ تمثل ذلك فى الموقف الدوركيمى من التطورية ذلك الموقف الذى أكده كل من مالينوفسكى وراد كليف براون[31]. حيث نجده قد أكد على إمكانية الدراسة المعاصرة للظواهر الإجتماعية، وإستخدم فى ذلك المدخل المقارن. فلما جاء مالينوفسكى، بمدخله الوظيفى، فإننا نجده قد أسس ثورة فى علم الأنثروبولوجيا، وأستنادا إلى مدخله فقد كان منطقياً أن يتناقض مع وجهة نظر التطورية والإنتشارية، ذلك لأنها كانت متلائمة مع فترة تاريخية معينة، هى فترة القرن التاسع عشربينما ينتمى تفكير مالينوفسكى إلى القرن العشرين، اضافة إلى أنه كانت له محاوره المعرفية التى تتناقض وهذه الإتجاهات. وهو ما يعنى أنه قد قبل وجهة نظر الإتجاه الوظيفى حيث أكد على التصور النسقى للوحدة، وتحديد لخصائصها وصفاتها، بدلا من تتبع الإرتباطات التاريخية لهذه الوحدة[32] مثلما فعل السابقون عليه. إذ أنه كان غالبا يهتم بآدائية الثقافة ودورها دون النظر إلى شكلها،على نحو ما فعلت هذه الإتجاهات.

ومن الطبيعى أن يتلخص موقف مالينوفسكى فى علاقته بالاتجاهات التطورية والإنتشارية فى رفضه الكامل لكافة قضاياها، ولو أن هذا الرفض لم يكن كلياً. ويمكن إيجاز علاقة التناقض بينه وبين هذه الاتجاهات فى مسألتين، الأولى أنه إذا أكدت الانتشارية على التحرك الجغرافى المنفصل للسمات المهاجرة، وهو ما يعنى ضمنياً أن شكل السمات هو دائماً موضع

الاهتمام، وأن غياب التصور الكلى والتماسك البنائى لسمات الثقافة أمر يعد نقطة أو بداية منطقية مقبولة بالنسبة لهذا الإتجاه. فإن برنسلاو مالينوفسكى يقود موقفاً مضمونه التأكيد على تساند وترابط كافة عناصر الثقافة المعاصرة لكونها ذات إسهام وظيفى فى بناء هذه الثقافة. وفى إطار المسألة الثانية نجده قد قاد حوار مع الإتجاه التطورى ومعتقداته فيما يتعلق بمفهوم «البقايا»، حيث النظر إلى بعض السمات الحاضرة فى الثقافة المعاصرة ومحاولة تفسيرها على أن لها أصولها فى ارتباطها بأداء وظيفى فى موقف تاريخى ماضى، وأنها ما زالت باقية فى الحالة المعاصرة بدون آية دلالة أو صلة بالوظائف أو السمات الأخرى[33].

فى مواجهة هذه القضية نجد أن مالينوفسكى يقود حواراً ولو أنه كان ناجحاً على مستوى منطق الجدل والمناقشة، إلا أنه كان مكمن ضعف قاتل أورثه مالينوفسكى للاتجاه الوظيفى. حيث نجده يؤكد على خلاف النزعة التطورية أن أصل الشئ لا يكمن فى بدايته التاريخية بل إن أصل الشئ لا يعنى اى شيئاً آخر سوى طبيعته الأساسية[34]، التى تضم ضمن ما تضم الاهتمام بدوره العملى. أما القول بوجود بقايا من الماضى فى البناء الحاضر بلا وظيفة فهو قول لا يتسق مع منطق الأمور. إذ ما هى جدوى أن يثقل بناء المجتمع كاهله بهذه الأثقال الميتة، وأنه من الأفضل مناقشة هذه البقايا بالنظر إلى وظيفتها فى إطار بناء الثقافة المعاصرة ما دامت هى جزء منها، لأنها لا بد وأن تؤدى حتماً وظيفة معينة فى هذا البناء. فمثلاً فى مجال التكنولوجيا نجد أن اختراع السيارة قد حل محل العربة التى يجرها الحصان، حتى أن الأخيرة لم تعد متلائمة وأسلوب تخطيط الشوارع فى نيويورك أو لندن، ومع ذلك فهى موجودة فهل معنى ذلك أنها بقايا؟. يؤكد مالينوفسكى أننا نستطيع أن نجيب على هذا السؤال بلا ونعم. فإذا كنا نقصد

وظيفتها فى الإنتقال السريع، فإن السيارة أسرع منها، وبذلك تصبح العربة التى يجرها الحصان شيئاً متخلفاً باقياً من الماضى، إلا أنها لم تتمسك بهذه الوظيفة بل بدلتها ما دامت وظيفتها الأولى لم تعد متلائمة مع السياق الاجتماعى المحيط. ولذلك فقد أصبحت وسيلة للتريض والتجول كما كان يحدث فى الماضى، حينما يحتاج الإنسان إلى إسترجاع بعض العواطف الرومانسية. ثم يناقش سباب بقاء الموديلات القديمة من السيارات إلى جانب الحديثة، فيؤكد أنها باقية لأنها أرخص ثمناً من الموديلات الحديثة، وبذلك فهى تؤدى وظيفة اقتصادية فى البناء القائم[35]، إضافة الا ان امتلاكها يساعد على استدعاء عبق الماضى ورومانسيته.

ويؤكد مالينوفسكى أن مفهوم البقايا قد أدى إلى تأخير تقدم العمل الميدانى الفعال والمثمر، فبدلا من أن يجهد الباحث الملاحظ نفسه فى البحث عن الوظيفة المعاصرة لآية حقائق ثقافية[36]، فإنه – لكسله – يرضى نفسه بالقول بأن هذه الحقائق بقايا من بناء ماضى، كما أدى ذلك إلى ابتكار وسيلة منهجية براقة وزائفة لإعادة تركيب الماضى فى مراحل تطورية متتابعة. ويدلل برنسلاو مالينوفسكى على هذا القصور المنهجى والتصورى لهذا الأسلوب من واقع بعض تفسيراته لبعض الحقائق الاجتماعية كاحتفالات الزواج الشعائرية،التى ينظر اليها البعض باعتبارها بقايا من مرحلة تاريخية ماضية،حيث كان يسودها تقليد خطف العروس. وفى الحقيقة لقد أضر هذا الأسلوب فى تفسير مفهوم (البقايا) بفهمنا لواقعه مهر العروس مثلا، الذى ليس إلا عبارة عن – على ما يدعى – مقايضة تجارية بين كلا الطرفين، برغم كونه أسلوب شرعى له وظائف دينية وقضائية واقتصادية واضحة ومعقدة[37] من شأنها الحفاظ على أحد نظم البناء.

بالاضافة إلى ذلك توجد قضية خلافية أخرى بين التطورية والإنتشارية كأطر أنثروبولوجية سابقة والوظيفية كإطار تصورى لاحق، ويتمثل فى الموقف من قضية التغير الاجتماعى. وحسبما «لوس مير» على أن الوظيفية كانت تدرس النسق كنهاية لعملية التفاعل أو التغير، أى بعد أن يفرغ من كل التفاعلات والتناقضات ويصبح مستقراً، لكى يشكل أساساً للتفاعل الوظيفى، فإن التطورية والإنتشارية كانتا فى أساسها فروضا وقضايا عن التغير الاجتماعى(38). فقد كانت التطورية تهتم بالانتقال المتتابع من مرحلة إلى أخرى، حيث يتم هذا الانتقال بناء على عوامل كثيرة، إما نضج الوسائل المادية للإنسان، وإما ابتداع أفكار الإنسان لواقع جديد. المهم بالنسبة للنزعة التطوريه أن الانتقال كان يتضمن تغير طبيعة المرحلة اللاحقة عن السابقة. على خلاف ذلك ركزت الإنتشارية على السمات المادية للثقافة وإنتقالها من ثقافة إلى أخرى، ثم حالة تلاؤمها كعنصر لا بد وأن يوجد، إلى جوار عناصر ثقافية أخرى فى بنية الثقافة،وعلى هذا النحو نجد ان هذا العنصر إما أن يعدل بعض مظاهر العناصر الأخرى، وأما أن يعدل من بعض مظاهره. وفى النهاية لا بد وأن تساعد هذه التعديلات على تحقيق عملية التكيف، وبذلك تعتبر التفاعلات والتعديلات جوانب أساسية من عملية التغير حتى وأن لم تنجزها. فى مواجهة ذلك كان من الضرورى بالنسبة للنظرية الوظيفية عند مالينوفسكى أن تدرك فروض التغير هذه وأن تنقل أو تستفيد منها، حتى تتمكن من الإسهام فى النظرية العامة للتغير الاجتماعى لأنها أصبحت – أى وجهة النظر التطورية والانتشارية – عناصر إيجابية فى النظرية العامة أيضاً، مثلما تم نقد وتفنيد عناصر خاطئة فى التصورات السابقة، وبذلك كان من الممكن لمالينوفسكى ان يؤسس موقفاً نقدياً نظرياً مرتبطاً إرتباطاً عضوياً بحركة نمو النظرية السوسيولوجية والأنثروبولوجية يلغى جوانب القصور

والضعف فيما سبقه، ويكمل نطاقات النقص فيها بدلا من الإلغاء دونما الإكمال. ولعل هناك من يتساءل الم يتأثر مالينوفسكى فى دراسته للتغير الاجتماعى والثقافى فى أفريقيا بالأطر التصورية والانتشارية. تشير الإجابة إلى أنه قد تأثر فى دراسته لديناميات التغير الثقافى فى أفريقيا حيث نجد ان معالجته جمعت الأطر التطورية والانتشارية والوظيفية فى كيان نظرى واحد.

خامساً: تنظير مالينوفسكي علي خلفية عصره:

من الطبيعى أن نتحدث عن روح العصر الذى عاش فيه برنسلاو ماليبوفسكى فى تناولنا لإسهاماته النظرية. نخصه بها دون سابقية من رواد النظرية الوظيفية بسبب الوفرة والتشعب الهائل الذى حدث لأفكار واتجاهات النظرية السوسيولوجية والأنثروبولوجية خلال هذه المرحلة. ذلك أنه فيما يتعلق بهربرت سبنسر وإميل دوركيم، كانت هناك اتجاهات فكرية متباينة لها أصولها فى تطور تاريخ الفكر البشرى، حيث كانت الاتجاهات الفكرية متباينة ومحددة فى المرحلة الأولى، واستمرت هذه الحالة فى المرحلة الثانية والمراحل التالية من تاريخ النظرية السوسيولوجية. غير أنه فى المرحلة الثالثة التى عاصرت برنسلاو مالينوفسكى، حدث خلط وتهجين وتولد وإثراء بين الاتجاهات الفكرية المختلفة، بحيث تولدت لدينا بعض الأفكار، التى لم تعد تنسب لاتجاهات فكرية محددة، بكونها قد أصبحت منتشرة فى عدد من العلوم. فى هذا الإطار نجد أن التخصص وتقسيم العمل قد واصل زحفه حتى شمل نطاق العلم، فلم يعد المفكر يقدم الأفكار التى تهتم بها علوم عديدة، بل أصبح عليه أن يتشكل حسب قوالب وتوجهات علمه. يلتزم بمناهجه وتصوراته، ومن هنا بدأت نسبة الأفكار للعلوم وليس للاتجاهات كما أصبح

من ملامح هذه المرحلة أن وجدت بعض الأفكار القائمة فى فضاء الفكر دون أن تكون لها صلة عضوية بالكيانات القديمة أو الحديثة على السواء.

ونستطيع أن نؤكد أنه قد حدث تماثل بين طبيعة برنسلاو مالينوفسكى وطبيعة وعصره الذى يعد عصر التناقض والثورة، لذلك كان مالينوفسكى مفكر التناقض والثورة، وانعكس ذلك فى تنظيره وإمبيريقيته على السواء. فقد كان داعية ثورة فى الأنثروبولوجيا، إلا أن وسائل نضاله كانت عبارة عن تصورات ومفاهيم صيغت فى عصر سابق عليه، ومن هنا تولدت دراما التناقض، فهو قد قبل ورفض أفكاراً من الاقتصاد وعلم النفس والأخلاق والاجتماع والسياسة. وكانت معايير الرفض والقبول عنده هى مقولات مرجعيته الوظيفية. فهو يرفض مثلا التصور الأوربى عن البدائى الكسول والمضيع للوقت، فهو كسول لأن الطبيعة كريمة معه، بأقل عمل تعطيه الكثير ومن هنا فليس هناك لديه داع ملح للعمل، ثم أنه مضياع للوقت، يتجلى ذلك فى التجوال البحرى المتمثل فى رحلات «الكولا» التى تقع فى مجتمع التروبرياند، تلك الرحلات التى ليست لها فائدة اقتصادية، بل هى مقصورة على مبادلات شعائرية لا طائل من ورائها. ويرد برنسلاو مالينوفسكى على ذلك مستندا إلى دراسته لنظام الكولا فى مجتمع التروبرياند بقوله أن الشخص الكيرواتى ليس كسولا، ولديه طاقة هائلة على العمل المستمر، يدفعه إلى هذا العمل الجاد، لأن العمل يحدد مكانته ووضعه القبلى. ثم يؤكد أن تقسيم العمل والتخصص يسود هذه المجتمعات. ففى عملية كعملية بناء القارب مثلا، وهى العملية التى يتطلب إنجازها توفر أنواع كثيرة من العمل(38). وأن نظام «الكولا» يشكل محور البناء الاجتماعى لهذه المجتمعات. وأن الأشياء القيمة التى تمثل أساس المبادلات فى هذا النظام، والتى تنتقل بين الجزر، وهى انتقالات تجارية فى مظهرها، غير أن هذا الانتقال التجارى

لا يعتمد على التقدير البسيط للمنفعة، والربح والخسارة، ولكنه يعتمد على إشباع حاجات جمالية وعاطفية لمستوى أعلى من مجرد إشباع الحاجات البيلوجية[39] إضافة إلى أنه يتضافر مع مبادلات تجارية حقيقية ويشكل إطاراً لها.

ويؤكد مالينوفسكى فى كتابه (العادة والجريمة فى مجتمع بدائى) أن وصف أى مجتمع بأنه شيوعى أو رأسمالى أو حتى تسوده التكوينات المؤسسية، يعبرعن استعارة ضمنية لمفاهيمنا الملائمة لظروفنا الاقتصادية، وجدلنا السياسى. وهى على هذا الأساس لا يمكن إلا أن تكون مضللة، وأما الأسلوب السليم فهو أن تصف الحالة الواقعية للأمور بالنظر إلى حقائق الدراسة، وهو فى ذلك يؤكد بصورة صريحة أنه ضد أصحاب التصورات النظرية التى يخلعونها على الواقع ليتشكل وفقا لها، وبديلاً لذلك فهو يعطى نقطة البدء فى العملية الفكرية للواقع الذى له الأولوية القادرة على تشكيل تصوراتنا. وبذلك يؤكد برنسلاو مالينوفسكى على ضرورة أن يكون الباحث موضوعياً، بمعنى أنه فى دراسة وتفسيره لواقعة معينة، فإن هذا التفسير يجب أن يكون ملتزماً بالتأكيد على علاقات الاتصال بين الواقعة وإطارها البنائى بدلا من فصلها عن إطارها، حيث يؤدى هذا الفصل إلى ضياع معظم معانيها الأساسية. وقد كان الحوار الثانى الذى قاده مالينوفسكى مع أفكار تقع فى نطاق علم النفس التحليلى والتجريبى، فبدلا من الإيمان بفكره علم النفس التى تؤكد أن البناء النفسى للإنسان يشكل بعض من سمات الثقافة على هيئته، فإنه يرفض هذا القول مؤكداً أن مهمته الأساسية هو أن يوضح أن بداية الثقافة تتضمن كبت الغرائز، وأن كل العناصر الأساسية المؤسسة لعقدة أوديب أو أية عقدة أخرى إنما تعد نتيجة تالية لعملية التكون التدريجى للثقافة[40]. ثم يوضح هذه القضية بتطبيق وجهة نظرة على فهم عقدة

أوديب كما هى عند عالم النفس فرويد، إذ يوضح أن هذه العقدة ليست عامة، ذلك لأن طبيعة علاقاتها لا ترتبط بتكوين الفرد النفسى، ولكن بطبيعة علاقات وعمليات الثقافة، ففى جزر التروبرياند يشعر الطفل بالعداء تجاه خاله وليس أباه كما يذهب فرويد، وذلك بسبب سلطة الخال عليه، وإلى ممارسات وضوابط هذه السلطة المحددة والتى تعمل على قهر الغرائز الفردية دائماً[41]. وهو هنا يؤكد أيضا أننا لا يجب أن نطبق تصوراتنا النابعة من ثقافاتنا على الآخرين من الثقافات الأخرى، حيث هناك أيضاً تصورات خاصة بهم لجوانب البناء.

وفى نطاق علم الأخلاق نجده لا يقف فقط مع تايلور، أو هربرت سبنسر اللذان يؤكدان على عقلانية السلوك البدائى، ولا مع ليفى بريل الذى يؤكد على لا عقلانية هذا السلوك[42] وإنما يقف موقفاً وسطاً، حيث نجده يؤكد أن السلوك البدائى عقلانى ولا عقلائى فى وقت واحد، يختلف ذلك حسب الموقف الذى يقع فيه هذا السلوك. فى هذا الإطار فإننا نجد ان الانسان البدائي قد أجرى تصنيفاً مبدئياً لما هو حقيقى وما هو وهمى وخيالى، بل نجده قد استخدم المعايير التى يمكن أن يوافق عليها جون ستيوارت[43]. كذلك أكد أنه مثلما ينظر الأوروبى إلى الدين والعلم، فإنه البدائى ينظر كذلك إلى السلوك العقلانى واللاعقلانى، حيث يتركز اهتمامه بأى منهما فى طبيعة الأداء الوظيفى للسلوك وإشباعه لحاجاته الإنسانية والبيلوجية دونما اعتبار لعقلانيته أولا عقلانيته.

وإلى جانب القضايا السابقة التى عرضنا لها نجد أن مالينوفسكى كان على علاقة فكرية ببعض أفكار ومفكرى عصره، فهو قد أخذ عن «فوندت» نزعته النفسية وإمبيريقيته الموضوعية[44]، وكذلك منهجه الإستبطانى النفسى الذى رفضه أميل دوركيم. ثم أنه كان على اتصال كذلك بالنزعة

الفردية لهربرت هربرت سبنسرومذهبه التطورى ونزعته الإمبيريقية الإنجليزية، بل إننا نجده قد تأثرببعض الأفكار الماركسيةكتأكيده على أن ظاهرة اجتماعية ينبغى ان ترد إلى أصولها الفردية. بالإضافة إلى ذلك فقد اتصل بأفكار النزعة التطورية عن السحر الأسود بإعتباره أداة للضبط الاجتماعى يستخدمه أصحاب السلطة والثروة أساساً فى المجتمعات البدائية، وأنه ليس متاحاً لكافة الناس بنفس القدر(45). بالإضافة إلى ذلك فإننا قد نجده قد تأثر بالأفكار العضوية للتراث الإنجليزى الذى يؤكد على التقاليد. ارتباطا بذلك يؤكد جولدنر أنه قد كان لدى مالينوفسكى إحساساً تأثر فيه بإيدموند بورك يؤكد على أهمية التقاليد حيث يحذربورك ومن بعده مالينوفسكى أنه إذا حطمت التقاليد، فأنك سوف تحرم الكائن العضوى – أى المجتمع – من درعة الواقى، وبذلك فأنت تسلمه لعملية الموت، والفناء الحتمية(46).

المراجــــع

1- Magumdar. D. N. & Madan. T. N.: AN introduction to Social Anthropology, Asia Publishing house, Bombay, Madras, Longon, New York, 1961. Pp. 10 - 11.

2 – إيفانز بريتشارد.: الأنثروبولوجيا الإجتماعية، ترجمة د. أحمد أبوزيد، منشأة المعارف. الإسكندرية، 1960، ص 113.

3- Gouldner, A: The Coming Crises of Western Sociology, Hemman, London, 1971, P. 171.

4- Martindale, D: The Natune and Types of Social Theory, London, Rovtledge & Kegan Paul 1961, P. 422.

5- A. Gouldner.: Op. Cit. P. 133.

6- Gluckman. M.: Order and Rebellion in Tribal Africa, Collected Essays with An Au-tobiographical Entroduction, London, Cohen & West, 1963. P.

7- B. Malinowski.: Arganauts of the Western Pacific, London, 1934. Pp. 468 - 469.

8- E. R. Leach.: "The Epistemolgical Background of Malinowski's empiricism" in Man and culture By, Raymond Firth. Routledge &Kegan Paul, London, 1970. P. 121.

9 – ديوى جون: المنطق، نظرية البحث ترجمة الدكتور ذكى نجيب محمود، دار المعارف بمصر 1960، القاهرة، ص ص 15 – 16.

10 – مرجع سابق، ص 32.

11- E. R. Leach.: Op. Cit. P. 122.

12- Ibid. P. 122.

13- B. Malinowski.: A Scientific Theory of Culture and other Essays. A. Galaxy Books, 14. Ibid. Pp. 26 - 27.

14- Ibid. Pp. 26 - 27.

15 - أحمد الخشاب، دراسات أنثروبولوجية وأثنوجرافية، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية 1959، ص 61.

16- A. R. Leach.: Op. Cit. P. 122.

17- B. Malinowski.: A Scientific Theory of Culture and other Essays. P. 19.

18- Ibid. P. 69.

19- Parsonst. (Malinowski and The Theory of Social Systems (in) Man and Culture ed By: Raymond Firth. 1970. P. 69.

20- A. R. Leach.: Op. Cit. Pp. 123 - 124.

21- Buckley. Walter: (Stuctural - Functional Analysis In Modern Society) in Modern Sociological theory in its Contintinuify and change. Ed By.Haward Backer & Alvin Boskoff. The dryden press, New York - 1957, Pp. 240 - 241.

22- A. Gouldner.: Op. Cit. P. 128.

23- Ibid. Pp. 128 - 129.

24- T. Parsons.: (Malinowski and the theory of social systems) P. 61.

25- A. Gouldner.: Op. Cit. P. 129.

26- T. Parsons: Op. Cit. P. 64. And see also. B. Matinowski: A scientific theory of culture Pp. 121 -122.

27- B. Malinowski.: A scientific theory of culture and other essays. P. 10.

28- Ibid. p. 28.

29- Ibid. P. 17.

30- D. N. Magumdar. T. N. & Madan. Op. Cit. P. 26.

31- D. Martindale.: Op. Cit. P. 460.

32- B. Molinowski.: A scintific theory of culture and other essays. P. 28.

33- A. Gouldner.: Op. Cit. P. 126.

34- V. F. W. Vega: (Man and culture in changing anthroplogical interpretations in. A. A inthro. Vol. 62 Dec 1960. No. 6. 943 - 465. Esp. 950.

35- T. Parsons.: Op. Cit. P. 55.

36- B. Malinowski.: A scientific theory of culture and other essays. P. 16.

37- ibid. Pp. 28 - 29.

38- Ibid. Pp. 30 - 31.

39- Ibid. P. 30.

40- Lucy Maire,: (Malinowski and the study of social change) in Man and Culture. Ed. P. 230.

41- B. Malinowski.: Argonauts of the western Pacific. London, 1934, P. 156.

42- Ibid. P. X.

43- Ibid. P. 18.

44- ibid. P. 19.

45- Ibid. P. 22.

46- A. Gouldner: Op. Cit. P. 134.

الفصل الثاني

برنسلاو مالينوفسكي بين الإمبريقية والتنظير «طبيعة الإطار المنهجي»

الفصل الثاني

برنسلاو مالينوفسكي بين الإمبريقية والتنظير

« طبيعة الإطار المنهجي »

تمهيد :

قبل أن نعالج المقولات الأساسية للإطار التصورى الذى قدمه برنسلاو مالينوفسكى، نجد أنه من الضرورى تحديد طبيعة هذا الإطار أو النموذج النظرى، بعد أن عرضنا للتيارات المعرفية التى شكلت مقدمات له. والحقيقة أننا إذا تفحصنا جملة الآراء التى قيلت فى طبيعة تفكير مالينوفسكى ونموذجه النظرى لوجدنا أن بعض المفكرين قد ذهبوا إلى أن مالينوفسكى كان يؤمن إيماناً عميقاً بالدراسات الحقلية، وينفر من المناقشات النظرية التى تصطبغ بصبغة فلسفية بحتة والتى ظهرت على وجه الخصوص فى علم الاجتماع الفرنسى[1]. بينما أكد آخرون على أنه قد فشل فى صياغة نظرية عامة، حيث شكل غياب هذه النظرية جانب الضعف فى إنجازه العلمى وتراثه النظرى، بينما على مستوى النظرية التحليلية أو العملية Clinical، فإننا نجده حسبما يذهب البعض قد نجح نجاحاً غير مقارن[2]. إضافة إلى أن البعض الآخر قد ذهب إلى أنه كان يرتاب دائماً فى النظرية المجردة[3] ويبدو أن قدرته التنظيرية المحدودة جعلت منه باحثا إمبيريقياً رائعاً بالرغم من فشله فى التنظير المجرد[4]. وأن عدم قدرته على التجريد قد أوقعته فى أخطاء أساسية ما كان له أن يقع فيها، كفشله فى التعرف على الوظيفة الأساسية لنظام الكولا[5].

ذلك يعنى أن بنائه الفكرى يمكن بلورته تجريديا فى فكرتين رئيسيتين،

الأولى أنه لم يكن منظراً على قدرة تجريدية، عالية بحيث تمكنه قدرته هذه من صياغة تصور نظرى يمتلك قدراً عاليا من التكامل والاتساق المنطقى. والثانية غلبة الطبيعة الإمبيريقية على جهده العلمى حتى أثرت هذه النزعة الإمبيريقية على تنظيره، فظل مرتبطاً بالوقائع الملاحظة فى ميدان الدراسة. لذلك نجده يؤكد دائماً أن أية نظرية علمية يجب أن تبدأ من الملاحظة وتقود دائماً نحوها. وأنها يجب أن تكون إستقرائية، وتتعرض للتجارب العلمية حتى يتم التحقق من صدقها، وأن الأنثروبولوجيا العلمية يجب أن تشير إلى الظواهر التى يمكن تحديد شكلها أو هيئتها بالمعنى الموضوعى للكلمة(6). وبذلك تصبح الملاحظة الإمبيريقة للحقائق هى المعيار الأساسى لصدق التصور النظرى عنده، وهى أيضاً المجال الرئيسى الذى يشكل النطاق الوظيفى والآدائى لهذا التصور النظرى.

أولاً: الحاجات الفردية، المتغير المؤسس للوجود البنائي:

يبدو أن ذلك ليس غريباً بعد أن عرضنا التيارات المعرفية المشكلة لفكر برنسلاو مالينوفسكى، أن نؤكد أنه من بين التيارات الفكرية التى تعرض لها أنه قد تأثر بالنزعة الفردية النفعية كما هى عند النفعيين إضافة إلى إسهامات هربرت سبنسر، ومن هنا نجد ان مالينوفسكى قد أعتبر الفرد وحاجاته العضوية المتغير الأساسى فى للوجود البنائى للمجتمع. وهو أيضاً قد تأثر بالنزعة الإمبيريقية الإنجليزية التى تسند إلى الواقع مسئولية تأسيس التصور النظرى على غرارة، إضافة إلى استمرار دوره فى اختبار كفاءة الإطار النظرى. ويبدو أن نزعته وتصوره للثقافة وأجزائها وعلاقتها بالحاجات الفردية ليست شيئاً بعيداً عن ذلك. ثم يأتى بعد ذلك تأثير البراجماتية عليه، وهى مذهب عملى يطلب من فكر البشر أن يكون دائما على اتصال بسلوكهم الواقعى، يهديه إلى الصواب ويوضح له أقصر الطرق لتحقيق

الإشباع. ثم تأثره بالإمبيريقية الموضوعية «لفوندت» واستخدامه المنهجى للاستبطان النفسى. ونتيجة لتأثره بهذه المحاور الفكرية نجده يرفض التصور البنائى المبتعد عن الوجود الفردى. الواقعى والملموس، كما حدث فى التنظير الفرنسى لعلم الإجتماع على يد أميل دوركيم بصفة خاصة. إلى جانب ذلك أكد مالينوفسكى على الاهتمام بالدراسة الإمبيريقية للواقع مع ما يتضمنه ذلك من تطوير تكنيكات البحث التى تساعد على هذا التناول الإمبيريقى له. إلا أنه كعالم وظيفى – نشأت وظيفيته فى جزء منها كجهد نقدى لإصلاح عيوب فى كيان أطر تصوريه سابقة عليه كالتطورية والنزعة الإنتشارية – كان عليه أن تكون النظرة الكلية أحد عناصر مدخله التحليلى فى الدراسة، وأن يصبح التكامل البنائى الذى يدرك بقدر من التجريد عقيدة تلون وجهة نظره فى البحث والدراسة، وهنا يكمن منشأ التناقض. ذلك لأنه مطالب بوجهة نظر لم ترد فى محاوره المعرفية، أو هى وجدت فى محاور لم يتعرض لها فكره[7]. وقد أدى ذلك إلى تحقيق نتيجتين منطقيتين، الأولى أنه إبتكر تصوراً بنائياً وظيفياً فيه بعض العيوب المنطقية وفيه من العيوب المنهجية ،إذا تأملناه من وجهة النظر البنائية. أما النتيجة الثانية فقد اتضحت فى نزعته الإمبيريقية القوية والمتطرفة التى أكسبت دراسته الإمبيريقية فضل الريادة والقدرة على غيرها من الدراسات.

وقد كان من الممكن تلافى هذه العيوب المنطقية والمنهجية فى نموذجه النظرى لو أنه قد تعرف على بعض الأعمال الفكرية التى تملك تصوراً إجتماعياً . بل وتصوراً بنائياً للمجتمع كنسق. فقد وجدت أعمال ماكس فيبر، وفلفريد وباريتو ومع ذلك لم يتعرض لها ولو حتى بإشارة. بل أنه حينما حاول التعرف على النزعة السوسيولوجية عند إميل دوركيم تعرف عليها فى

مواضع وقضايا محدودة للغاية، ولم يكتف بذلك وإنما وقف من النموذج النظرى الدوركيمى بجملته موقفاً سلبياً نقدياً[8].

فى هذا الإطار يمكن القول بأن الفترة الزمنية التى عاشها امتلأت على ما يؤكد تالكوت بارسونز بكثير من التحليلات والتصنيفات للأنساق الاجتماعية والثقافية والشخصية، فقد وجد ذلك التقسيم الذى إتخذ من الإنسان معياراً له. واذا كان هناك بعض المفكرين الذين نظروا إلى الفرد بإعتباره كائن عضوى بيولوجى. أو أن هناك البعض الذين تناولوه على أنه كائن مبدع وحامل وناقل للثقافة، ثم تقسيم الثقافة ذاتها إلى الثقافة باعتبارها نسقاً متميزاً فى بناء المجتمع. والثقافة باعتبارها أحد المكونات المنظمة للتفاعل فى الأنساق الاجتماعية التى يمكن تمييزها تحليلياً على المستوى النظرى. بل إننا نجد أن الفرد ككائن عضوى بيولوجى خضع لنفس التقسيمات، حيث أصبح الكائن العضوى، ينظر اليه باعتباره كائنا من المنظور الفسيولوجى ثم بإعتباره نسق للشخصية بالنظر إلى نوع السلوك المنبثق عن هذا الكائن العضوى[9].

بذلك يمكن أن نؤكد أنه قد ظهرت فى هذه الفترة، مجموعة من الأنساق المنبثقة عن وجود الإنسان باعتباره كائنا عضويا . فهو كنسق فسيولوجى، وهو كنسق الشخصية، أو نسق ينبثق عنه سلوك معين، ثم الأنساق التى تتم عن طريق تفاعل أنساق الشخصية ذات السلوك، أى الأنساق الإجتماعية، ثم أنساق النمط الثقافى التى تتولد من التفاعل الاجتماعى الواقعى، والتى يكون فى إمكانها الاستمرار إلى مدى يتجاوز عمر الكائن العضوى، والتى تنتقل أو تنتشر من نسق اجتماعى إلى آخر[10].

وأمام هذه التحليلات المتنوعة للأنساق المتعلقة بالإنسان لم يتخذ برنسلاو مالينوفسكى إلا التحليل المبدئى الأول، الذى يصنف الوجود المتعلق

بالكائن العضوى إلى الكائن العضوى البيولوجى، ثم الإنسان كحامل ومبدع للثقافة. ثم حاول تأسيس رابطة بين هذين الشقين، وإنحدر فى أثناء تأسيس هذه الرابطة إلى قضايا سطحية و ساذجة ضمنياً . حيث كان الأحرى به أن يواصل تحليلاً أو إختبارا إمبيريقياً لأنساق وظيفية أساسية تتمثل فى النسق الاجتماعى ونسق الشخصية، كما تجلى ذلك فى تحليلات باريتو وماكس فيبر، وإميل دوركيم. بل إننا نجد أنه حينما أراد تطوير تحليله طوره على الجانب النفسى وليس على الجانب الاجتماعى، حيث إهتم أساساً بالعمليات والدوافع التى يؤسس بها الكائن العضوى سلوكه للتكيف مع وسطه الثقافى المحيط[11]. ذلك يعنى أن هذا التوجه الذى يشكل سلوك الإنسان ككائن عضوى لم يكن سلوكاً بين فاعل وفاعلين آخرين على ساحة التفاعل الاجتماعى، بل كان بالنسبة لمالينوفسكى سلوكاً بيولوجياً خالصاً بصفة أساسية، ثم أسس له برنسلاو مالينوفسكى بعد ذلك اتصالا بالثقافة وكان ذلك تطوراً واضحا فى تنظيره الوظيفى.

ثانياً: نموذج مالينوفسكي لتحليل الواقع الاجتماعي:

قبل أن نحدد مواطن الضعف المنطقية والمنهجية فى تصوره الفكرى، فإننا نجد أنه من الضرورى صياغة القضايا الأساسية لنموذجه النظرى، تلك القضايا التى تتأرجح بين محورين رئيسيين هما حاجات يجب أن تشبع ثم وسيلة لإشباع لهذه الحاجات وذلك ولتوضيح ذلك نجده يؤكد أن لدى الكائنات البشرية حاجات نحو الطعام والتناسل والمأوى إلخ[12].

وأن أى سلوك للإنسان فى المجتمع يجب أن يفهم بالنظر إلى نوع الإشباع الذى يقدمه لهذه الحاجات البشرية[13] .على هذا النحو نجد أن الثقافة هى أساساً جهاز أدائى، من وظائفه الأساسية المساهمة فى وضع الإنسان فى موقف أكثر تكيفاً بإتاحة أشياع أفضل لهذه الحاجات البيولوجية،

عن طريق حل المشاكل التى قد تعترض إنجاز الإشباع أو تحقيق التكيف. وأن ضروب السلوك التى قد يتبعها الكائن البشرى فى هذه العملية تصبح بالتكرار عادات مكتسبة لها وجود منفصل ومؤكد عن الدوافع الفسيولوجية(14). بذلك تصبح الثقافة عبارة عن نسق من الموضوعات، والجهود والاتجاهات التى يؤدى كل جزء فيها غاية أو وظيفة معينة. وأنه يوجد نوع من التساند والتكامل بين هذه العناصر المختلفة, بحيث تشكل الثقافة نوعاً من الوجود النسقى. وأن الإنسان فى هذا الوجود ألنسقى لا يواجه مشاكله وحده، وإنما تتأسس أنواع من الجهود والاتجاهات والأشياء، التى تنتظم حول وظائف معينة. وعلى هذا النحو تتشكل نظم مثل العائلة والقبيلة والمجتمع المحلى، والجماعات المنظمة للتعاون الاقتصادى، والجهد التعليمى، والسياسى والتشريعى.

ويصدق التشريح السابق على الثقافة إذا نظرنا إليها كوجود إستاتيكى. أما إذا نظرنا إليها فى عملياتها الديناميكية، فإننا يمكننا أن نحللها إلى جوانب أساسية تشكل وجودها كالتعليم والضبط الاجتماعى والاقتصاد وأنساق المعرفة والعقيدة والأخلاق، وأيضاً أنماط التعبير الفنى الخلاق(15). ويضيف دون مارتندال إلى ذلك اللغة كأحد مكونات التكنولوجيا والتنظيم الاجتماعى، إضافة إلى أن الإشباع الثقافى يفرض ضرورات ثانوية على الإنسان(16). غير أن اللغة تعد إحدى وحدات جهاز الثقافة كما أشرت، أما الإشباع الثقافى فهو يندرج تحت علاقة الإشباع التى طرفاها الحاجات البيولوجية وجهاز الثقافة. وتتمثل العيوب المنطقية فى هذا التصور فى عدم وضوح الرابطة التى تربط بين عناصره بصورة متسقة ومتماسكه. فهو ينظر إلى الثقافة على أنها نظم مدمجة فى جهاز لإشباع الحاجات البيولوجية، ثم يعطى هذه الثقافة وجوداً حتمياً بحيث يراها على هيئة أنساق اجتماعية

وثقافية. وبذلك يتركنا برنسلاو مالينوفسكى أمام هذا الوجود التصورى دون أن يهدينا إلى الرابطة أو العلاقة بين هذه الأنساق وهذه النظم بصورة واضحة ومحددة. ويكمن العيب الثانى فى استخدامه لكلمة وظيفة، فهو لم يستخدمها بالمعنى العضوى الدوركيمى، أو المعنى الذى استخدمها به راد كليف براون، كما انه لم يستخدمها بنفس استخدام المناطقة وعلماء الرياضة. وبالرغم من مراوغته وسرده لمعانى عديدة لكلمة وظيفة وإستخدامها، نجد أنه يستخدمها غالباً بمعنى الغرض، فهو يقول أن وظيفة النظام هى إشباع حاجة معينة(17). وبذلك فهو يترك إثبات هذه الوظيفة للجهد الذاتى الحدسى، وقد أدى هذا التصور للوظيفة إلى أنه لم يدرك كما يؤكد موس Mauss الوظائف الهامة والبنائية لنظام الكولا(18).

كذلك نجد أن قوله بالوظيفية الشاملة قد أثقل نسقه بأثقال ميتة هى «البقايا» ونزع من النسق آية إمكانية للتطور ما دام متكاملاً ومتسقاً فى كافة الظروف. بالإضافة إلى ذلك فإننا نجده حينما يعالج التغير فى المجتمع الأفريقى، يؤكد على تغلب الثقافة الأوروبية على الأفريقية، ثم لا يوضح لماذا تخلت الثقافة الأفريقية عن خصائصها لتستبدلها بالخصائص الأوربية المقابلة. قد يكون هذا التأكيد على الوظيفية الشاملة إنما مرجعه إلى التأثير البراجماتى عليه، وهو التأثير الذى يؤكد أن كل معرفة ثقافية يجب أن تكون ذات علاقة بسلوك الإنسان الواقعى.

بالإضافة إلى ذلك فإننا نجد أن برنسلاو مالينوفسكى لم يحسم علاقته بالتطورية والإنتشارية مثلما حسمها اميل دوركيم، الذى أصر على الدراسة المعاصرة، ثم استبدل النزعة التطورية والتاريخية بالمنهج المقارن. أما برنسلاو مالينوفسكى فإننا نجده يصر على أن فهم أى وحدة يجب أن يتم داخل إطارها البنائى ودورها ووظيفتها كأداة لإشباع حاجة بيولوجية. وفى

هذا السياق نجده يتطرق إلى ذكر أن البقايا لها وظائف ولا يمكن أن تفسر تاريخياً، وهو التفسير الذى رضى به اميل دوركيم. إلى جانب ذلك نجده يؤكد فى دراسته للتغير الاجتماعى على أنه من الممكن الاستفادة من التاريخ، بل ويعيد تركيب الماضى من خلال الإخباريين بما يلقى الضوء على فهم الحاضر[19]. وأنه ليس هناك تناقض بين المنظور التاريخى والمنظور الوظيفى، وربما يعد هذا التناقض فى تصوره انعكاس للتناقض الذى كان موجوداً فى عصره. فهو قد عاش طفولته وسنوات تكوينه الفكرى داخل تلك الأفكار التى قاد ثورة ضدها [20]، ومن ثم كان من الضرورى أن يتأثر ببعض قضاياها ووجهة نظرها.

وفيما يتعلق بمالينوفسكى كباحث ذو قدرة أمبيريقية رفيعة المستوى، فإن ذلك من المسائل التى أصبحت موضع إتفاق على ساحة التفكير الأنثروبولوجى. إرتباطاً بذلك يؤكد ماكس جولكمان أن البحث الميدانى بكل تكنيكاته وأكثرها دقة وأصالة، يدين بالكثير لما أنجزه برنسلاو مالينوفسكى[21]. ذلك الرجل الذى تفوق على كافة سابقيه، ويعضده قول ليش أن النزعة الإمبيريقية لمالينوفسكى تشهد على قدرته الفذه التى تعد العنصر الأقوى والأضعف فى إمكانياته العقلية، فقد كان من احد وصايا التعاليم المالينوفسكية أن الحقائق تصبح مفهومه فى إطارها الإجتماعى فقط[22]. أما كون امبيريقته مكمن الضعف فى بنائه الفكرى، فذلك لأنه لم يرتفع بمستوى ملاحظاته ويجردها على هيئة قضايا حتى تشكل نظرية عامة مجردة، وأن كانت هذه الملاحظات قد وجهت بوجهه نظر متماسكة تصل إلى مستوى النظرية العلمية.

ثالثاً: أدوات البحث الاجتماعي عند برنسلاو مالينوفسكي :

بالإضافة إلى ذلك تكمن سرعظمة مالينوفسكى كباحث إمبيريقى متميز، يتفوق على كثير من الباحثين الميدانيين السابقين عليه، فى أن إثنوجرافيته على ما يؤكد «ليش» كانت حية دائماً. وفى إطار ذلك يشير «ليش» إلى إبتكارته المنهجية العميقة وإلى قدرة نظرية عميقة كذلك(23). فى هذا السياق نجد أن مالينوفسكى نفسه يؤكد أن النظرية العلمية يجب أن تبدأ من الملاحظة وتقودها(24). وهو بذلك يطلب أن تكون الملاحظة قائمة بناء على نظرية معينة. بل أنه يطالب الباحثين صراحة، فى دراسته عن مجتمع التروبرياند، أن يعتمد القائم بالبحث الميدانى بصورة كاملة على الإلهام من النظرية. قد يكون صاحب النظرية هو القائم بالبحث الميدانى، غير أنه فى هذه الحالة ينبغى ان يقوم بوظيفتين يجب أن يؤسس بينهما فصلا فى الزمان وفى ظروف العمل(25).

فإذا كان هذا موقفه من النظرية. وهو الشق الأول من أداء أى باحث علمى فما هو موقفه من الملاحظة؟. الإجابة على ذلك تذهب إلى أن هذه الملاحظة تستند أولا وبدون أدنى شك إلى النظرية كما قدمنا، وثانياً فإننا نجده يؤكد أننا يجب أن نرى الحقائق داخل إطارها الاجتماعى. ثم يؤكد أن من أحد الشروط الأساسية للعمل الميدانى الجيد أنه يجب أن يعالج كافة الجوانب النفسية والثقافية للمجتمع المحلى، وذلك لأنها متشابكة للغاية، حتى أن عزل أى جانب منها يؤدى إلى عدم فهمه. ذلك أن هذا الفهم لن يتوفر إلا إذا أخذنا فى الاعتبار كافة الوحدات الأخرى. ويتجلى ذلك فى دراسته لنظام الكولا، فهو وأن كان يعالج نظاما للتبادل والتجارة إلا أننا نجده يشير دائماً إلى التنظيم الاجتماعى، وقوة السحر، وإلى الأساطير والفولكلور، وفى الحقيقة إلى كل الجوانب الأخرى فى علاقتها بالجانب الأساسى الذى هو الآن نظام

الكولا[26]. حقيقة أن الباحث سيجمع الحقائق ويلاحظها مستقله لكنه يجب أن يعيد تركيبها بحيث تبدو حية كما هى فى الواقع. وهنا يكمن دور النظرية، ويكمن أيضاً الفارق بين الملاحظة التى يجريها الباحث بدون الإستناد إلى النظرية وتلك التى يجريها بناء على نظرية معينة.

أما فيما يتعلق بوسائل الملاحظة وأدوات جمع البيانات، فإننا نجد أن من بين هذه الوسائل التى لجأ اليها مالينوفسكى لجمع البيانات هى استخدامه للإخباريين. ارتباطا بذلك تؤكد «لوس مير» أنه كان يعتمد على ذاكرة الإخباريين لمعرفة الماضى[27] بما يلقى الضوء على فهم الحاضر. غير أنه أنه لم يكن يعتمد كلية على الإخباريين المحترفين وهذا سر عظمته كباحث إمبيريقى فذ على ما يؤكد «ليش»[28]. بل أنه كان يتحدث معهم ليطابق ذلك مع ما رآه فى واقع حياتهم. وذلك يرجع لأنه كان مهيأ لإقامة ملاحظة علمية دقيقة خاصة أنه كان على معرفة بلغة السكان الأصليين، مما قلل من اعتماده عليهم. بل إننا نجد أن مالينوفسكى ينتقد هؤلاء الباحثين الذين يعتمدون على الإخباريين كلية بأنهم لن يحصلوا فى النهاية إلا على السلوك فى مستواه المثالى وليس السلوك الحقيقى الواقعى. وهو يحذر كافة الباحثين من تلاميذه من ثرثرة الإخباريين، ويؤكد أنه يجب على الباحث أن يحافظ على أن يتحدث مع الإخبارى فى الموضوع دائماً[29].

وتعد الخرائط الجينالوجية الذى قد يرسمها للنسق القرابى فى المجتمع المحلى الوسيلة الثانية لجمع البيانات عن أوضاع المجتمع. وهو يقول عنها أنها ليست إلا خريطة يمكن الإحاطة منها من أول نظرة بعلاقات القرابة المترابطة. وهى تعد مفيدة للباحث لأنها تصور له شكل التماسك الاجتماعى للسكان المحليين، بل أنها توفر له بعض البيانات الرسمية والحقيقية، معبر عنها فى تجمعها الطبيعى[30].

بالإضافة إلى ذلك فإننا قد نفاجأ حينما نرى أن برنسلاو مالينوفسكى قد حلل مضامين الأساطير والروايات وفقرات الفولكلور فى مجتمع التروبرياند. وأكد استنادا إلى ذلك أن صورة نظام الكولا وتفاصيله، بل والسحر وكافة طقوسه، وعمليات إنجاز المبادلات، وقادة الرحلات البحرية وسلوكهم فى كل جزيرة موجود بصورة تفصيلية داخل هذه الأساطير التى تشكل ميثاقاً قيمياً ينظم تفاعلات الوجود الواقعى لمجتمع التروبرساند[31].

بالإضافة إلى ذلك نجده يؤكد على ضرورة أن يضع الباحث نفسه فى أفضل ظروف العمل، ولخص هذه الظروف فى ضرورة أن يكون الباحث على معرفة بقيم ومعايير وأفكار الأثنوجرافيا المعاصرة. ثم أن عليه أن يعيش بين السكان الأصليين وليس إلى جوار معسكرات البيض، وأن يعرف لغة السكان الأصليين. إضافة إلى إن عليه أن يطبق عدداً من الطرق المنهجية للحصول على البيانات وليست طريقة واحدة حتى يصل إلى مستوى من البيانات الصادقة الموثوق بها.

فى مقابل ذلك نجد ان مالينوفسكى يخوض معركة ضد الباحثين السطحيين الذين يعتمدون كلية وبصورة كاملة على طريقة السؤال والجواب «الإستبار». إذ أنهم على أفضل الأحوال لن يحصلون إلا على تقارير ميتة، وكيان لا حياة فيه من القوانين والإطرادات، والأخلاق، والمعتادات التى ترسم ما ينبغى أن يكون ولكن الواقع وما يحدث فيه غالباً ما يتم تجنبه[32]. إذ أنك إذا سألت الشخص عن موضوع معين فإنه لن يجيب عليك إلا بمواثيق «مثل» حياته تلك التى استوعبها ونشئ عليها منذ الصغر فيما يتعلق بهذا الموضوع، وليس بما يمارسه فى حياته الواقعية وما قد يكون بها من انحرافات. ويؤكد أن هناك مجموعة من الظواهر التى لا يمكن تصويرها أو تسجيلها عن طريق صيغ الأسئلة والإحصاءات،ولكنها يجب أن تلاحظ فى

واقعيتها كاملة، ذلك لأن هذه الوثائق ليست ملائمة لتصوير تفاصيل هذه الحياة الواقعية(33).

وفى نهاية استعراضنا للإطار المنهجى الذى أسسه برنسلاو مالينوفسكى هل نقول مع تالكوت بارسونز أنه فشل فى صياغة نظرية عامة، بينما قد نجح فى صياغة نظرية تحليليه. أم نقول مع «ليش» أنه أراد أن يصوغ نظرية متوسطة المدى تقف بين الإمبيريقية والتنظير، نظرية تقف بين الثقافة ونظرياتها ذات المستوى المتطرف فى التجريد وبين الفرد فى واقعه ودوافعه التى تمثل عمق وجوده الإمبيريقى، وتجميعها عند موقف وسط. ويشير نأمل هذه الأفكار إلى أن مالينوفسكى كباحث أنثروبولوجى قد أسس مستوى من الممارسة الإمبيريقية فتح به عصراً جديداً فى البحث الميدانى، وصاغ مستوى من التنظير كان نتاجاً فكرياً لتفاعل ما تلقى من محاوره المعرفية. هذا إلى جانب أن مالينوفسكى كان سئ الحظ إذ أنه عاش فترة انتقال وتناقض فكرى، فانعكس ذلك على موقفه الفكرى والنظرى.

المراجـــع

1 - إيفانز بريتشارد، مرجع سابق، ص 7.

2- T. Parsons. Op. Cit. P. 54.

3- A. R. Leach.: Op. Cit. P. 134.

4- Ibid. P. 119.

5 - إيفانز بريتشارد، مرجع سابق، ص 143.

6- B. Malinowsk,: A. Scientific Theory of Culture, Op, Cit, P. 67.

7- T. Parsons.: Malinowski and the Theory of System, Op, Cit, P. 69.

8- Ibid. P. 69.

9- Ibid. P. 56.

10- Ibid. P. 57.

11- M. Gluckmann, Op. Cit. P. 232.

12- D. Martindale: Op. Cit. P. 428

13- T. Parsons.: Op. Cit. 55.

14- B. Malinowski: A Scientific Theory of Culture, Op, Cit, P. 120.

15- Ibid, P. 150.

16- D. Martindale: Op. Cit. P. 428.

17- M. Glucman.: Op. Cit. P. 136.

18- A. R. Leach: Op. Cit. Pp. 132 - 133.

19- Lucy Mair: Op. Cit. Pp. 240 - 243.

20- A. R. Leach: Op. Cit. P. 127.

21- M. Gluckman: Op. Cit. P. 243.

22- A. R. Leach: Op. Cit. P. 120.

23- Ibid. P. 119.

24- B. Malinowski: A Scientific Theory of Culture and Other Essays, Op, Cit, P. 67.

25- B. Malinowski: Argonauts of the Western Pacific, Op, Cit. P 9.

26- Ibid. P. xvi.

27- Lucy Mair: Op. Cit. P. 242.

28- A. R. Leach, Op. Cit. P. 120.

29- M. Gluckman: Op. Cit. P. 251.

30- B. Malinowski: Argonauts of the Western Pacific, Op. Cit. Pp 14 -12.

31- Ibid, Pp. 32 - 328.

32- A. R. Leach: Op. Cit. P. 132.

33- B. Malinowski: Argonauts of the western Pacific Op. Cit. P 18.

الفصل الثالث

برنسلاو مالينوفسكي والتصور الوظيفي للمجتمع

الفصل الثالث

برنسلاو مالينوفسكي والتصور الوظيفي للمجتمع

تمهيد :

نقصد بمقولات التصور الوظيفى عند مالينوفسكى تلك القضايا أو الفروض الوظيفية المتضمنة فى نموذجه الفكرى، والتى تشكل جوهر إسهام مالينوفسكى فى بناء النظرية الوظيفية ذات القضايا أو الفروض المحددة. وقد لا تكون كافة مقولاته ذات مضامين وظيفية، إضافة إلى أنه قد لا ترد كافة القضايا الوظيفية فى فكره، لذلك قصدنا أن نلقى الضوء على تلك المقولات الوظيفية التى تشكل نطاق التقائه بالنظرية الوظيفية العامة. من هذه المقولات متغيرات التكامل البنائى وهى التى تشكل جوهر التصور الكلى لبناء المجتمع، ثم التساند البنائى والإسهام الوظيفى، ثم التغير والتوازن، ثم دور الظواهر الإنحرافية فى نموذجه الفكرى.

بيد أننا إذا تأملنا التصور الوظيفى الذى قدمه برنسلاو مالينوفسكى للمجتمع كنسق اجتماعى، فإننا سوف نجد أن هذا التصور يؤكد على الجوانب الإستقرارية أو المتوازنة بالمجتمع. وذلك يرجع بطبيعة الحال إلى أنه رغم ضغط الأطر التصورية والإنتشارية عليه، وهى أطر تؤكد بدرجة أعلى على التغير الاجتماعى، إلا أنه كباحث علمى ميدانى بالأساس كان يميل إلى أن يكون صادقاً مع الواقع الاجتماعى الذى درسه، وقد كان مجتمع جزر التروبرياند الذى درسه مالينوفسكى مجتمعاً مستقراً ومنظماً ويعيش فى ظل حالة كاملة من التوازن.وتأكيداً لأمانته العلمية مع الواقع الذى درسه فإننا

نجد أن برنسلاو مالينوفسكى أتجه إلى معالجة قضايا التغير الاجتماعى بنفس القدر الذى حدثت به التغير فى واقع المجتمع. ومن ثم لم يقدم الفرضيات المتعلقة بالتغير، لأن واقع مجتمع التروبرياند كان ساكنا لم تظهر فى إطاره مظاهر التغير وهو الأمر الذى يؤكد أمانه وصدق أخلاقه العلمية مع الواقع الذى يدرسه، وهو التوجه الذى يتضح من خلال استعراض القضايا الرئيسية لنظريته.

أولاً: متغيرات التكامل البنائي للمجتمع:

يؤكد أوسيبوف – ناقلا بذلك وجهة نظر مالينوفسكى – أن أية نظرية علمية عن الثقافة يجب أن ترتكز على دعامتين، الأولى أن أى ثقافة يجب أن تشبع حاجات الإنسان البيولوجية، والثانية أن أى إنجاز ثقافى يجب أن يكون تحسيناً أدائيا لذات الإنسان أى يقدم أشباعا لحاجاته الأساسية[1]. ارتباطا بذلك فإننا نرى أنه قد أختزل النموذج النظرى الذى قدمه برنسلاو مالينوفسكى، الذى وان أكد حقاً على الحاجات البيولوجية كمتغير مستقل فى إطار الوجود البنائى والثقافى إلا أنه لم يغمط الوجود الثقافى كيانه المستقل، بحيث أصبح هذا الوجود الثقافى وجوداً بنائياً تصبح فيه الحاجات البيولوجية أقرب ما تكون إلى أوضاع المتغيرات التابعة. فهو لم يتبنى على الدوام الخط النظرى الذى يؤكد على أولوية الحاجات البيولوجية حسبما يذهب تالكوت بارسونز[2] بحيث لا يمثل الوجود الثقافى إلا وسائل لإشباع هذه الحاجات، وهو أيضاً لم يكن يسعى كما قد أكد «ليش» إلى إقامة نظرية متوسطة ألمدى، نظرية تجمع بين قمة النزعة إلى التجريد فى بناء الثقافة والالتزام المبدئى بالواقع الإمبيريقى[3]، كما تمثل فى حقائق الواقع الملاحظ. بل أنه على ما يؤكد مالينوفسكى نفسه قد أعطى الوجود الثقافى إلى جانب الوجود البيولوجى وجوداً مستقلاً، يؤثر بنفس القدر والفاعلية فى تشكيل سلوك البشر

فى نطاق وسطهم المحيط. يتجلى ذلك حينما يؤكد على أنه بالرغم من أن الكائنات البشرية ليست إلا حيوانات، إلا أنها حيوانات لا تعيش بالدوافع الفسيولوجية وحدها ولكن هذه الدوافع تكون عادة محكومة ومعدلة بظروف الوجود الثقافى[4]. ثم نجده فى موضع آخر يؤكد أنه بعد أن أوضحنا خضوع السلوك الإنسانى للحتمية البيولوجية، فإننا قد أوضحنا أيضاً أنه فى أية عملية حيوية فإن الدافع يعاد تشكيله أو تشترك المؤثرات الثقافية فى تأسيس الحتمية التى يخضع لها بصورة محددة[5]، ذلك بالإضافة إلى الحتمية البيولوجية. وبذلك يصبح السلوك البشرى فى إطار النسق النظرى الذى قدمه مالينوفسكى خاضعاً لنوعين من الحتمية، الأولى الحتمية البيولوجية والثانية الحتمية الثقافية.

فإذا كان الوجود الاجتماعى يخضع لنوعين من الحتمية، البيولوجية والثقافية فأننا نذهب إلى أن الوجود البنائى يمثل علاقة بين متغيرين إلى جانب متغيرات أخرى وسيطة. فهناك الحاجات البيولوجية التى تتطلب إشباعاً يحققه الوجود الثقافى بسلسلة من الاستجابات. وهنا يصبح المتغير المستقل هو الحاجات البيولوجية، إلا أن الوجود الثقافى لا يقف عند حد الاستجابات المباشرة لهذه الحاجات بل إننا نجده بحكم وجوده البنائى يصبح كياناً له دوافعه وحاجاته المشتقة. ويطرح المعايير واللزوميات والأنساق الثقافية التى تجعل من المستحيل على الحاجات البيولوجية أن تشبع إلا إذا تكيفت مع هذا الوجود الثقافى الذى قد يتغير من مجتمع إلى آخر، وبذلك تتحول الحاجات البيولوجية من موقف المتغير المستقل إلى موقف المتغير التابع. والحقيقة أن هذه الحركة بين الحتميتين لا تمثل تحركاً نحو النضج فى فكر مالينوفسكى بقدر ما تمثل نوعاً من تتابع السرد المنطقى للحقائق.

وتبدأ الحتمية البيولوجية من خلال تصوره لتنظيم الشخصية البشرية كنسق من الحوافز. فهو يتصور الشخصية على أنها مجموعة الحاجات الأساسية الموروثة بيولوجيا، حيث تتحد حول كل حاجة من هذه الحاجات مجموعة من أنماط السلوك الآدائية. أو تنبثق عنها إلا أن الدافع لهذه الأنماط الأدائية يظل من البداية إلى النهاية هو الحاجة الأساسية(6). وتصبح الوظيفة الرئيسية التى تبرهن على وجود هذا السلوك الآدائى، أو حتى التواجد المادى لبعض الأدوات هى إشباع حاجات الكائن البشرى. وبذلك تتخلق الثقافة التى لن تكون إلا تجميعاً لهذه الأدوات والمناشط التى تمارس فى تحقيق عمليات الإشباع البيولوجى هذه.

ويتجلى ذلك من أن تعريفه للثقافة كان تعريفاً أنسيكلوبيديا شاملا. حيث يعرف الثقافة باعتبارها تتشكل بوضوح من ذلك الكل المتكامل الذى يتكون من الأدوات، والسلع المستهلكة، ومن المواثيق الدستورية الخاصة بعديد من التجمعات الاجتماعية، ومن الأفكار والصنائع البشرية والعادات والمعتقدات. وسواء كنا نهتم بثقافة غاية فى البدائية والبساطة أو بثقافة متطرفة التعقيد والنمو، فإننا نواجه بجهاز هائل، مادى فى جانب منه، وإنسانى فى جانب آخر، وروحى فى جانب ثالث. حيث يصبح الإنسان بواسطة هذا الجهاز قادراً على أن يتوافق والمشاكل الواقعية المحددة التى قد تواجهه(7). وتبدو المسحة التجميعية فى هذا التعريف نظراً لأنه يواجه كل حاجات الإنسان المادية والاجتماعية والروحية، هذا إلى جانب حاجات أخرى مشتقة تتعلق بالثقافة أساساً وليس بالفرد.

ويحدد مالينوفسكى الحاجات البشرية ثم يقابلها باستجابات الثقافة لإشباعها عن طريق مجموعة من الجهود المنظمة، أما الحاجات البيولوجية الرئيسية فهى:

- التمثيل أو التحول الكيفى.
- التناسل أو التكاثر.
- الراحات البدنية.
- الأمـــــــان.
- الحـــركـــة.
- النمـــــــو.
- الصحـــــــة.

ثم يواجهها بالاستجابات الثقافية التى تطرحها الثقافة كنظم من وظائفها الأساسية أشباع هذه الحاجات الرئيسية وهى بنفس الترتيب السابق:

- إدارة التعيينات.
- القـــرابـــة.
- المـــــأوى.
- الحـمــايــة.
- المناشط أو الجهود.
- التمرين أو التدريب.
- الصحـــة[8].

ويشكل كل بند من بنود استجابات الثقافة نظـام ثقافى وظيفته الرئيسية هى إشبـاع الحاجـة المقابلة. ويحـذر مـالينوفسكى كل التحـذير من محـاولة تصوير علاقة النظم التى تتشكل من استجابات الثقافة للحاجات البيولوجية باعتبارها استجابة مباشرة، إذ يؤكد أن الحاجة الواحدة ربما يتطلب إشباعها

آداءاً وظيفياً تنجزه مجموعة من النظم المترابطة، أو أن النظام الواحد يشبع آداؤه الوظيفى حاجات بيولوجية عديدة. وبذلك يقع التشابك والتكثف فى الثقافة، إذ تكثر وحداتها بحيث تتواجد بها وحدات آدائية إضافية، يسهم إنتاجها فى توفير إشباع ملائم ومتكامل لمجموعة الحاجات[9]. وفى هذا الصدد تبدأ الثقافة فى تأسيس ميلاد استقلالها، ويذكرنا تواجد وحدات الآداء الوظيفى الإضافية هذه بمسلمة الوحدة الوظيفية، حيث يؤكد مالينوفسكى أن ثقافات المجتمعات البدائية تبدو دائماً تقليدية ومحافظة، وذلك لأنها لا تطرح بدائل كثيرة للإشباع الوظيفى وهذا على عكس الثقافات المتقدمة[10]. وبذلك نجد أن مالينوفسكى يختار النظام كوحدة للتحليل البنائى عنده، وفى هذا الإطار نجده يعرف النظام بأنه مجموعة الجهود التى تمارسها مجموعة من الناس وفقاً لميثاق معين بهدف إشباع حاجة بيولوجية محددة. ثم يبدأ مالينوفسكى فى توضيح منطقة فى بناء النظام. حقيقة أن النظام هو كيان آدائى وظيفته إشباع حاجة أو حاجات بيولوجية معينة. إلا أن هذا الكيان لا بد وأن يكون له تجسيد مادى ولا مادى، إضافة إلى معايير داخلية للسلوك بحيث تتولى تنظيم هذه الجهود الآدائية التى تتولى إشباع الحاجات، ثم سلطة فعالة تباشر خضوع الجهود أو الأشخاص لهذه المعايير أو القواعد. إلى جانب أسلوب يتعلم به أو يتدرب من خلاله الأشخاص على أساليب إنجاز مناشطهم بهدف تحقيق هذا الإشباع. ومن هنا نجده يحدد بناء النظام على أنه يتكون من وحدات أساسية هى فى ذات الوقت اللزوميات الثقافية Cultural Imperatives التى تصبح وظائف للأنساق الرئيسية فى بناء الثقافة وهى كما يلى:

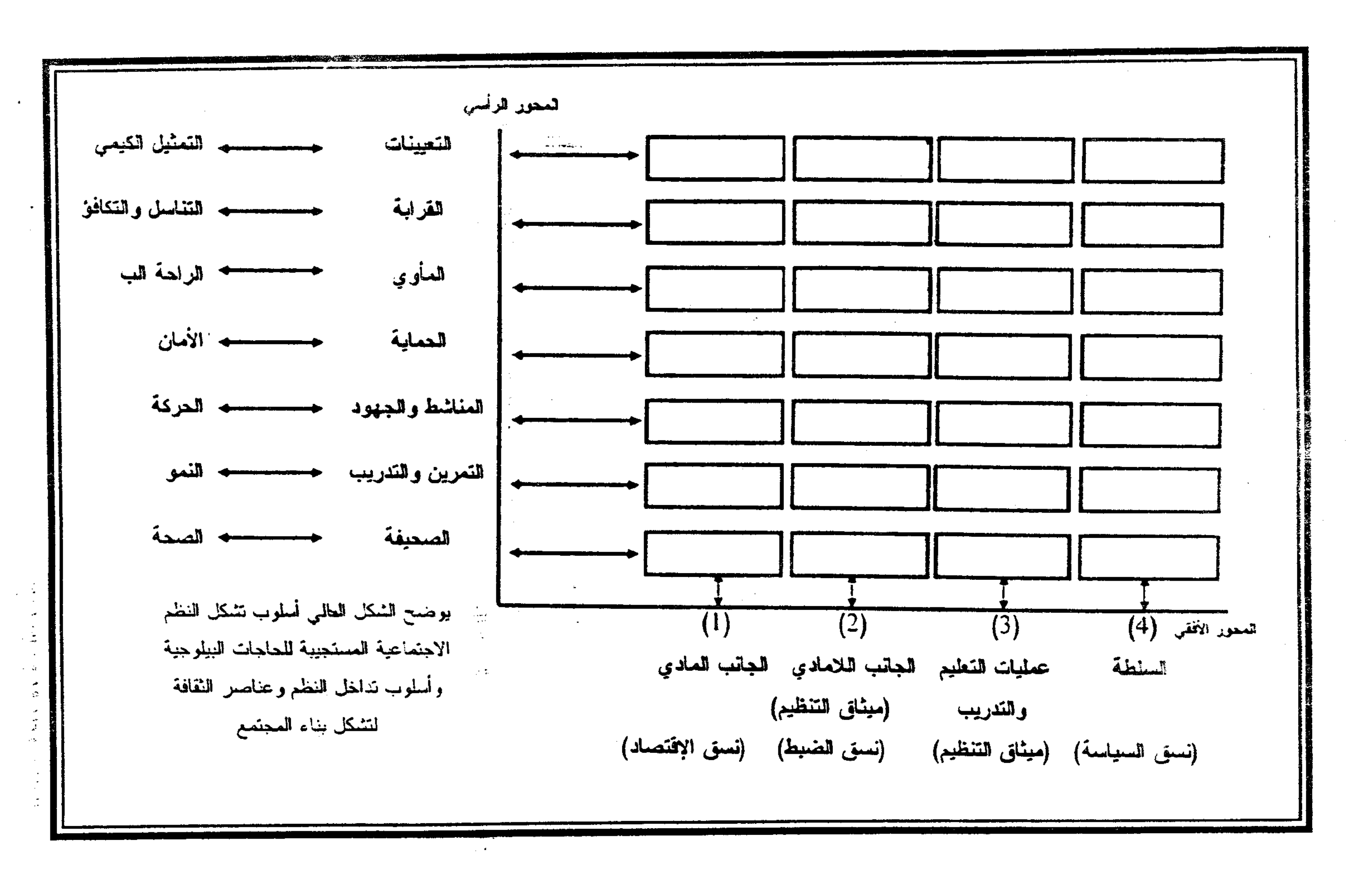
1- الجهاز الثقافى المكون من المعدات، وسلع المستهلكين التى يجب أن تنتج وتستخدم ويحافظ على بقائها، بل وتستبدل بإنتاج جديد.

2- يجب تقنين السلـوك البشـرى بالنظـر إلى تشخصـه الفنى، أو المعتاد، أو الشعـرى، أو الأخـلاقى، بل يجب أن ينظم ذلك من خـلال الفـعل والجزاء.

3- أن المادة البشرية - أى البشر - التى يتطلبها بقاء النظام يجب أن تتجدد و تتشكل وتدرب وتوفر لها المعلومات الكاملة عن التقاليد والعادات القبلية.

4- يجب تحديد السلطة فى كل نظام وتجهيزها بالقوى التى تيسر لها آداء مهمتها، وتوفير وسائل القهر لديها حتى تتمكن من تنفيذ أوامرها.

على هذا النحو تتحقق الاستجابات الثقافيةللحاجات البيولوجية، وتكون هذه الاستجابات قد شكلت بدورها أوبذاتها حتميات أو لزوميات ثقافية كان على الثقافة أن تطرح استجابات لها، وبالفعل تطرح الثقافة فى المشروع النظرى الذى قدمه برنسلاو مالينوفسكى أنساقاً متصلة بها. إذ تؤدى اللزومية الأولى وظيفة إشباعها النسق الاقتصادى، ويشبع نسق الضبط الاجتماعى اللزومية الثانية، على حين يشبع نسق التعليم،اللزومية الثالثة ويستجيب نسق التنظيم السياسى للزومية الرابعة[11]. وبذلك تصبح علاقة أنساق الثقافة بنظمها علاقة متقاطعة نوضحها بالرسم البيانى التالى:


المحور الرأسي
التعيينات
التمثيل الكيمي
القرابة
التناسل والتكافؤ
المأوي
الراحة الب
الحماية
الأمان
المناشط والجهود
الحركة
التمرين والتدريب
النمو
الصحيفة
الصحة
المحور الأفقي
(1) الجانب المادي (نسق الإقتصاد)
(2) الجانب اللامادي (ميثاق التنظيم) (نسق الضبط)
(3) عمليات التعليم والتدريب (ميثاق التنظيم)
(4) السلطة (نسق السياسة)
يوضح الشكل الحالي أسلوب تشكل النظم الاجتماعية المستجيبة للحاجات البيلوجية وأسلوب تداخل النظم وعناصر الثقافة لتشكل بناء المجتمع

فإذا تأملنا الشكل السابق فسوف نجد أن كل نسق من الأنساق يضم مكون أو عنصر من كل نظام تصاعدياً على المحور الرأسى. كذلك نجد أن كل نظاما لابد وأن يحتوى فى كيانه على مكونات من كل نسق من الأنساق، يوضحه امتداد النظام على المحور الأفقى. وخارج هذا الوجود الثقافى توجد الحاجات البيولوجية للفرد أو لمجموع أفراد الجماعة، تلك الحاجات التى فجرت نقطة بدء الوجود الثقافى أو البنائى، غير أنه بمجرد إستكمال تأسيس بناء الثقافة فأنها تكتسب وجوداً حتمياً وتمارس تأثيراً وتعديلاً على الحاجات البيولوجية التى تصبح خاضعة فى إشباعها لمتطلبات الثقافة وخصائصها. وفى إطار ذلك يؤكد برنسلاو مالينوفسكى على أن الثقافة تبدأ فى فرض طراز جديد من اللزوميات أو الحتميات المشتقة على السلوك البشرى[12]. إذ يؤكد أن الإنسان لا يحتاج بسبب الحاجة البيولوجية إلى أن يصطاد بالحراب أو بالقوس أو بالسهم، أو باستخدام السموم، ولا أن يدافع عن نفسه بالمأوى أو بالسلاح أو الدروع. إذ أن اللحظة التى يختار فيها استخدام أى من هذه الأدوات أو الوسائل، فإنها تكون نفس اللحظة التى تتجلى عندها قوة الثقافة فى فرضها لوسائل ثقافية معينة من شأنها أن تزيد من قدرة الفرد على التكيف مع البيئة، بحيث تصبح هذه الوسائل ذاتها شروطاً ضرورية للبقاء[13]. وهو يؤكد أن الإتلاف الدائم للمعدات والتضامن الاجتماعى سوف يقود على المدى الطويل ليس إلا انهيار الثقافة فقط، ولكن إلى الفناء والوباء المستمر، وإفساد كفاءة الأشخاص ومن ثم نحو نقص السكان وفنائهم[14]. وهذا يعنى أن الثقافة على هذا النحو تحقق وجوداً بنائيا مستقلاً، أو حتمية جديدة مفسرة لذاتها على ما يؤكد دون مارتندال[15].

وبتحليل بناء الثقافة فى المجتمع نجد أن مالينوفسكى يقسمه إلى شقين، ويضم الشق الأول بناء الثقافة وعناصرها كوسائل آدائية وظيفتها إشباع

الحاجات البيولوجية التى تمثل الشق الثانى، وهوذلك الشق الذى يعطى نقطة البدء فى الوجود البنائى. وبتحليل مالينوفسكى للعلاقة بين الشقين – نجده يؤسس حالة من التكامل بينهما بحيث نجد أنه من المستحيل أن يحيا الكائن الحى (الإنسان) بدون إشباع حاجاته البيولوجية، وذلك لن يتحقق إلا بتوفر وسائل الإشباع الثقافى. إلى جانب ذلك فإننا نجده يؤسس تحليلاً داخلياً آخر يقسم به الثقافة إلى حاجات واستجابات. حاجات يطرحها الوجود الثقافى ذاته ليطلب لها إشباعاً، ويتحقق بذلك ضمنياً استقلاله وحتميته وقسره للسلوك البشرى. وحينما يتجه مالينوفسكى إلى اعتبار النظام وحده التحليل والدراسة نجده يتصوره مكوناً من أربعة عناصر متباينة ومتكاملة. واستنادا إلى ذلك يؤسس مـالينوفـسكى أربعـة أنواع من التكامل، تكامل الثـقـافـة والحاجات البيولوجية، ثم تكامل اللزوميات والإستجابات الثقافية، إلى جانب التكامل النظامى إضافة إلى التكامل النسقى. وبتحليل كل شكل من أشكال التكامل هذه نجد أن كل نموذج منها يدعمه نوع من التساند البنائى الوظيفى بين عناصره مما يؤدى إلى تأسيس تكامل بنائى شامل له.

ثانياً: الإسهام الوظيفي والتساند البنائي:

يحاول الفن جولدنر فى إحدث إسهاماته تحديد التساند البنائى بقوله أن التساند يميل أساساً نحو التأكيد على الكل، وعلى الترابط الشديد بين الأجزاء. وبقدر ما يميل مفهوم التساند نحو التأكيد على وحدة الكل فإنه يميل أيضاً إلى التأكيد على الأجزاء بالنظر إلى تضمنها ووجودها داخل هذا الكل الذى يعنى النسق. وتكتسب هذه الأجزاء حقيقية وواقعية وجودها من كونها توجد داخل نسق ومن أجله[16]. وتصبح علاقة هذه الأجزاء بالكل فى جزء منها علاقة حجم بنائى أساساً، بحيث نجد أن الجزء يكون دائماً أصغر من الكل ومتضمن بداخله. أما الشق الثانى للرابطة التى تربط الجزء بالكل فهى علاقة الإسهام

الوظيفى، وهى تشكل الجانب الدينامى فى هذه الرابطة البنائية. والحقيقة أن هذا الشق يكتسب معنى خاصاً عند برنسلاو مالينوفسكى، من خلال تأكيده أننا لا يجب أن نصور هذه العلاقة بتعبيرات زائدة أو فيها إسهاب. مثل القول بأنها الإسهام الذى يؤديه النشاط الجزئى فى النشاط الكلى الذى هو جزء منه، ناقداً بذلك أميل دوركيم، وينطبق هذا النقد من وجهة نظره أيضا، على راد كليف براون. ثم يحاول تحديد هذه العلاقة بقوله أنها ذلك الإسهام الذى تؤديه النظم البشرية بما فيها من جهود جزئية لإشباع الحاجات البيولوجية أو الحاجات الثقافية المشتقة(17). وهو بهذا يشتق لها تحديداً مأخوذاً من طبيعة نموذجه الفكرى كما أنضح من عرضنا لمتغيرات التكامل البنائى.

فإذا حللنا متضمنات مقولة التساند البنائى والإسهام الوظيفى، لوجدنا أنها تتضمن ثلاثة عناصر أساسية. العنصر الأول يتمثل فى وجود كل بنائى يحتوى على الترتيب الإستاتيكى لعناصر معينة، ثم التفاعل الدينامى لهذه العناصر. وقد أصطلح على تسميته بالنسق أو بالبناء أو حتى بالنظام. ثم العنصر الثانى ويحتوى على الأجزاء فى ترتيبها الإستاتيكى بحيث يتخذ كل منها موقعاً إستاتيكياً محدداً بالنسبة لمواقع العناصر الأخرى. ويختلف الباحثون بشأن مواقع هذه العناصر وترتيبها، فمثلاً تختلف العلاقة الإستاتيكية بين مواقع عناصر النسق فى التصور البارسونزى عن نظيرتها فى التصور الماركسى. ثم علاقة إستاتيكية أخرى وتتمثل فى موقع هذا الجزء بالنسبة للكل. وتختلف وجهات النظر فيما يتعلق بهذه المواقع بين علماء مثل ماركس ودوركيم ومالينوفسكى وبارسونز. ويتمثل العنصر الثالث فى مكونات النسق فى العلاقات الدينامية والوظيفية وهى تحتوى بدورها على شقين، الشق الأول ويضم العلاقات الوظيفية بين الجزء والجزء، ويتعلق الشق الثانى بالعلاقات الوظيفية بين الكل والجزء، ويختلف الباحثون أيضاً فى

صياغة ترتيبات هذه العلاقة الوظيفية بحيث نجدها عند دوركيم تختلف مثلا عنها عند مالينوفسكى.

بتحليلنا لأفكار مالينوفسكى نجده قد أكد دائماً على وجهة النظر التى ترى أن أى سمه بنائية تدرك إذا وضعناها داخل إطارها، الذى يفسر وجودها، ويعطى لهذا الوجود معناه. وقد كان ذلك إحدى جوانب ثورته الأنثروبولوجية ضد تصور النزعة الإنتشارية التى تؤكد فى تصورها للثقافة باعتبارها تتشكل من السمات المنفصلة المتراصة والتى توجد وجوداً عشوائياً، تهاجر منه أو إليه دون أن تكون هناك أية روابط عضوية بين هذه السمات[18] ومن هنا وجدنا برنسلاو مالينوفسكى يؤكد طيلة كتاباته بدرجة عالية على علاقة التساند والترابط البنائى بين مكونات البناء، ثم يؤكد أنه لا يمكن أن يكون هناك فصل بين الشكل والوظيفة[19]. وأن أى شكل يفهم ويكون له معناه من خلال دوره، وبذلك فهو ينتقد تحليل فريزر القيم للسحر بقوله أن انتباهه الرئيسى كان موجهاً إلى الشعائر والترانيم، ولم يكن على وعى بأن السحر هو ما يفعله السحر. ومن هنا فإننا لا نتمكن من فهم الإنجاز الشعائرى إلا فى علاقته بالإنجاز النفعى العملى المهيأ له، والمرتبط به بصورة جوهرية وأساسية[20]. وبذلك يؤكد مالينوفسكى على الإسهام الوظيفى لوحده بنائية معينة من خلال الإنجاز المنفعى والعملى الذى تؤديه، ثم على التساند البنائى إضافة إلى تاكيده على أن هذا الإنجاز يتم عادة لصالح وحدة معينة ترتبط بها الوحدة المنجزة أو المؤدية للوظيفة بصورة أساسية.

بالنظرة المتعمقة للمشروع النظرى الذى قدمه مالينوفسكى فسوف نجد أننا نواجه بثلاثة أنماط من التساند البنائى والإسهام الوظيفى. يتمثل النمط الأول فى تساند الأنساق الثقافية، أما النمط الثانى فيتمثل فى التساند

النظامى، بينما يتحدد الثالث بالنظر إلى التساند فى عمليات بنائية كالتغير والتبادل والمقايضة.

ويشتق تساند الأنساق من تصورنا للوجود الثقافى كنسق متكامل دون اعتبار إلى للحتمية البيولوجية التى شكلت نقطة بدئه. إذ نجده يقسم الوجود الثقافى إلى أربعة أنساق أساسية، يعالجها على مستوى التنظير فى كتابة نظرية علمية عن الثقافة، ثم يعالجها على مستوى البحث والإجراءات الإمبيريقية فى دراسته الرائدة أرخبيل غرب المحيط الهادى.

ويتمثل أول هذه الأنساق فى النسق الاقتصادى ويضم الوجود المادى للثقافة، سواء كان هذا الوجود إنتاجياً، أو استهلاكيا[21]، أو تمثل فى آليات إنتاج وإستهلاك الثقافة، سواء نجد ذلك بقارب «الكولا»، أو ثمار «إليام» المحددة للمكانة الاجتماعية. ثم نسق الضبط الاجتماعى الذى يضم ما قد يسمى بميثاق النظام، الذى يساعد الجماعة فى تحديد قيم وأعراف ومعايير وأهمية النظام الذى تنتظم فيه الجماعة[22]. كما يضم هذا النسق أيضاً تحديدات الجماعة الأخلاقية والشرعية مقننة فى شكل مكافآت وجزاءات، بل نجده يضم أحياناً النصوص الميثولوجية للأساطير والأوراد السحرية. وتحدد وظيفة هذا النسق فى أنه يرسم المعايير القيمية والمعيارية التى يجب أن تلتزم بها عناصر الثقافة فى إنجازها لأدوارها ووظائفها سواء كانت هذه العناصر هى النظم أم كانت الأشخاص[23]. ويتمثل النسق الثالث فى نسق التعليم وهو يحتوى على التدريب الاجتماعى الذى يتحدد هدفه فى مساعدة الأفراد على استيعاب القيم المجتمعية المتمثلة فى نسق الضبط. هذا بالإضافة إلى تدريب الفرد على استخدام الوسائل المادية من أجل استخدامها فى الإنجاز اليومى. ويعد النسق السياسى هو النسق الرابع والأخير لكونه يحتوى على كل ما هو سلطة سواء كان ذلك فى العائلة، أم فى سلطة الزعيم المحلى،

أم فى سلطة كبار السن، أو حتى زعيم المجتمع بكاملة. وإذا كانت وظيفة نسق التعليم هى إستدماج قيم وقواعد المجتمع فى بناء شخصية الأفراد، وإشاعة التجديد فى الحياة الاجتماعية عن طريق تدريب كل جيل للجيل الذى يليه، فإن النسق السياسى أو السلطة، يختص بفرض القواعد واستخدام القوة أحياناً[24]، بل والاختصاص بمسائل الدفاع والهجوم التى قد تكون ذات أهمية بنائية بالنسبة لبناء الجماعة. ويتحدد نطاق الإسهام الوظيفى لأى من هذه الأنساق فى الأنساق الثلاثة الأخرى. فمثلاً يتدخل السحر فى مجتمع التروبرياند فى الوجود المادى لصناعة القارب، أو فى تدشين هذا القارب[25]. بل ويتدخل فى إنجاز رحلة الكولا، ورسم النطاق الأسطورى أو الميثولوجى لها[26]. حيث يستعان به – أى السحر – فى التغلب على قوى الطبيعة، كما لو كان هو السلاح الذى يستخدمه التروبرياندى فى التغلب على كافة الأخطار المحيطة به[27]. على هذا النحو طور الأنسان فى مجتمع التروبرياند إشكالا عديدة لاستخدام السحر باعتباره آلياته التى ينتصر به على قوى الطبيعة الايجابية والسلبية. لذلك نجد أن هناك سحر الحدائق كى تنتج «ياما» وافرة، وكذلك السحر الأسود لإيقاع الأذى أو الضرر بعدو. بل أننا نجد تأكيداً عند التروبريانديين على ضرورة معرفة أى رجل وخاصة زعيم رحلة «الكولا» لكافة أنواع السحر، حتى يتوفر أمان الرحلة له. كذلك قد يتدخل النشاط الاقتصادى فى تحديد السلطة والزعامة، فمثلا الخال يعطى أخته جزءاً من محصول «اليام» الذى يشكل غذاء لها وزوجها. ونتيجة لذلك نجد أنه كلما كثرت زوجات الزعيم، كلما ورد إليه الكثير من محصول اليام كلما كان أكد قدرة على الإنفاق على طقوس وإلتزامات الزعامة، وهو ما يشكل طاقة تعمل على تفعيل مضامين النظام السياسى[28]. وهكذا يعالج

مالينوفسكى الإسهام الوظيفى والتساند البنائى بين أنساق الثقافة فى تداخلها من حيث الوجود والآداء بين بعضها البعض.

وتتضح معالجته على مستوى النظم من خلال تأكيد مالينوفسكى على أن دور أى نظام يتمثل فى إشباع حاجة بيولوجية معينة، فوظيفة الكولا إلى جانب التبادل الشعائرى لسلع اجتماعية (العقود وأساور اليد) تتمثل فى خلق روابط إجتماعية تساعد على تأسيس بناء متكامل من مجموعة من الجزر المنعزلة[29]، إضافة إلى القيام بعمليات تجارية يساوم فيها القائمون بها على الطعام والسلع الاستهلاكية الأخرى التى لها قيمة عملية[30]. كذلك نظام الدين الذى تتمثل وظيفته الرئيسية فى كونه وسيلة يلجأ إليها الإنسان، يستعد من خلالها بالقوى التى تساعده على الخروج من الأزمات حين تفشل كافة الطرق الأخرى[31]. هذا إلى جانب تأكيده على أن كل نظم البناء لها وظائف اجتماعية أو ثقافية ابتداء من وظيفة مهر الزواج[32]، وحتى وظيفة الدين واللعب[33] على نحو ما أوضح فى كتابه «نظرية علمية عن الثقافة» فى معالجته لحاجات الإنسان البيولوجية واستجابات الثقافة لها[34]. هذا مع التوضيح على أننا إذا حللنا أى نظام اجتماعى فإننا سوف نجده يتكون من أربعة عناصر ذات إسهام وترابط بنائى ووظيفى داخلى ببعضها البعض. هى العنصر المادى والعنصر اللامادى فى النظام، أو العنصر القيمى أو عنصر الضبط الذى يقوم بوظيفة تنظيم التفاعل داخل النظام، إلى جانب عنصر التمرين أو التدريب الاجتماعى للأجيال الحالية لكى تستوعب قيم المجتمع، ثم السلطة فى النظام، التى تتحدد وظيفتها الأساسية فى فرض إتباع الأفراد لقواعد وقيم الميثاق التى قد تم التدريب عليها، والتى قد تتعلق بإستخدامات آدائية معينة.

ويتجلى النمط الثالث للاسهام والترابط البنائى والوظيفى فى عمليتى التبادل والمقايضة والتغير، وبالنسبة للتبادل والمقايضة يذكر مالينوفسكى ان هناك أنواعاً كثيرة من المقايضة حتى لكأنه يوحى لنا بأنها تشكل الأساس البنائى لمجتمع جزر التروبرياند. فهو يعدد أنواعاً كثيرة من المقايضات التى إذا نظرنا إليها بنائياً لوجدناها تشكل إسهامات متبادلة لوحدات بنائية عديدة. فهناك التبادل على أساس استخدام القارب الذى يمتلكه شخص معين والذى يتلقى نظيراً لإستخدامه بواسطة الآخرين نصيباً أكبر[35]. ثم هناك المقايضة بين قرى الداخل والصيادين فى الساحل للسمك بالخضروات التى قد يكون لها إستخداماً طقوسياً[36]. ثم هناك التبادل الشعائرى المعروف بإسم مبادلات «الكولا»، سواء الداخلية منها أو الخارجية، ويقدم لنا مالينوفسكى أحد الأمثلة الصارخة على إنتشار مبدأ المقايضة حينما يؤكد أنه حينما تبكى المرأة وتنوح على زوجها بقدر أكبر، فإن لذلك مقابل يتمثل فى كثرة العطاءات الإقتصادية التى تهب لها من أقارب الميت[37]. بل أن السلطة السياسية ذاتها تستند إلى نوع من التبادل والمقايضة التى تتمثل فى الأخذ والعطاء الذى يتحدد فى إسهامات أقارب زوجات الزعيم من محصول «اليام»، لكى ينفقها فى أغراض اجتماعية صرفه. وبذلك نجد أن مالينوفسكى يركز على هذه العملية كميكانزم أساسى لتأسيس روابط بنائية وإجتماعية قوية.

ثم يشير مالينوفسكى إلى التغير الاجتماعى والثقافى الذى حدث فى مجتمع التروبرياند فيؤكد أن سلطة الزعيم قد أصبحت ضعيفة الآن، وذلك لأن قدر الهدايا الاقتصادية التى كان يتسلمها فى الماضى قد ضعفت نتيجة لأنه لم يعد له زوجات كثيرات سوى زوجاته الكبار، وبذلك فهو لن يكون قادراً على العطاء أكثر[38]. ويرجع سبب ذلك إلى التأثير الذى أتى الرجل الأبيض إلى المجتمع حيث بشر المستعمرون بديانة ونشروا أفكار جديدة،

إضافة إلى تأسيس المستعمرين لصناعات جديدة استوعبت كل نشاط السكان المحليين.وغيرت بعض جوانب نوعية حياتهم،بالإضافة إلى ذلك نجده يؤكد، أنه نتيجة لتغيرات كثيرة خضع لها مجتمع التروبرياند، أصبحت «الكولا» الآن عريانه من أية وظيفة اجتماعية هامة. وهو هنا يعرض للتساند والتأثير الوظيفى الذى بدأ يسهم فى تغيير السمات الأساسية لمجتمع التروبرياند، فالتغير فى أحد نظم هذا البناء من شأنه أن يؤدى إلى سلسلة عريضة من التغيرات التى ترتبت عليه نتيجة لترابط هذه النظم وتساندها مع بعضها البعض.

استنادا إلى ما سبق نستطيع أن نؤكد أن برنسلاو مالينوفسكى قد عالج قضية التساند البنائى والإسهام الوظيفى، كتأثير إيجابى تمارسه الوحدات البنائية على الأخرى بغية مزيد من القدرة على الآداء الوظيفى. ارتباطا بذلك يوجد نوع من التساند الوظيفى الذى لم يعالجه برنسلاو مالينوفسكى، وهو التساند والإسهام السلبى، أعنى أن وحدة معينة تسهم فى إعاقة آداء وحدة أخرى أو تعمل بإسهامها فى إتجاه القضاء عليها، مثال على ذلك تأثير قدوم الأوربيون على نظام «الكولا» . وهى المعالجة التى تجلت بصورة واضحة فى تناول دوركيم لظواهر الجريمة والإنتحار، والتى عالجها روبرت ميرتون بعد ذلك تحت مصطلح الوظائف المعوقة.

ثالثا: التوازن خاصية قاعدية للنسق الاجتماعي:

من الواضح أن قضايا الإنحراف والتغير شكلت نطاق التناقض والمعضلة فى فكر برنسلاو مالينوفسكى وذلك لأسباب عديدة. أولها أن برنسلاو مالينوفسكى كما أشرت كان ضحية تناقض وتفاعل فكرى شمل فترة ولادته الفكرية، بحيث إنعكس هذا التناقض على موقفه وتفكيره. أما السبب الثانى الذى أسهم فى إحاطة موقفه من قضايا التغير والإنحراف فى النسق

بالغموض، فيتمثل في الخداع الذي حدث بنشر «كابرى» لمقالاته غير المنقحة التي سلمتها إياه زوجته بعد موته، دون أن تشكل هذه المقالات وجهة نظر مالينوفسكى الأساسية والنهائية في التغيرالاجتماعي والثقافي ومن ثم أصبح هذا الكتاب لا يعبر إلى حد كبير عن وجهة نظر بنائية وظيفية للتغير. وتعد دراسته الرائدة «أرخبيل غرب المحيط الهادى» التي أجراها في جزر التروبرياند هي ثالث أسباب تأسيس غموض موقفه من التغير الاجتماعي. حيث يعتقد أنها كانت في أساسها على ما تؤكد «لوس مير» هروباً رومانتيكيا إلى حيث الهدوء والسكون في المجتمعات البدائية. يؤكد ذلك قوله «أن الأنثروبولوجيا بالنسبة لي تشكل هروباً رومانتيكيا من حضارتنا المبالغة في التقنين»[39]. ومن هنا جاء هذا المؤلف خاليا من آية معطيات إمبيريقية، أو حتى مقولات تصورية تؤكد وجود هذه الظواهر الإنحرافية، إذا نظرنا إليها إنطلاقا من التوازن كمرجعية اساسية للنسق من منظور وظيفي. وأننا إذا أضفنا مضمون مؤلفه (الجريمة والعادة في مجتمع بدائي) إلى جانب دراسته عن نظام الكولا في مجتمع التروبرياند فإنه تصبح بين أيدينا وجهة نظر علمية متكاملة قادرة على تصوير البناء الإجتماعي بما فيه من عمليات وظواهر أساسية، وأن كانت بعض هذه الظواهر لم تنل القدر الكافي من التأكيد على إسهامها الوظيفي.

ارتباطاً بذلك نرى ضرورة الإهتمام بمعالجة وجهة نظر مالينوفسكى فيما يتعلق بقضية توازن النسق ثم العوامل أو الظروف التي تؤدى إلى تأكيد توازن النسق أو اهتزاز هذا التوازن، مع التركيز على السلوك الإنحراف والعمليات والمواقف الصراعية، التي تقع في داخل النسق والتي يؤدى إستمرارها إلى تأسيس واقع جديد، مختلف عن الواقع السابق على قيامها.

وفيما يتعلق بالتوازن، فإننا إذا قلنا أن التساند بين عناصر أو أجزاء النسق

تعنى على المستوى البنائى، وجود نوع من الترتيب المحدد والثابت نسبياً بين عناصر النسق، وعلى المستوى الوظيفى وجود نوع من تبادل الإسهامات الوظيفية بين هذه الأجزاء أو العناصر، بحيث أن كل إسهام لأى من هذه العناصر يشكل إستمرارا للعنصر المتلقى لهذا الإسهام. بقدر ما يكون مبرراً لوجود العنصر الذى يقدم هذا الاسهام، فإننا نؤكد أن التوازن هو الثبات النسبى لترتيب العناصر، هذا إلى جانب الثبات النسبى لقدر الإسهام الوظيفى بين العناصر. فإذا بدأ أحد العناصر يطلب إشباعاً وظيفياً أكثر وأقل، أو يعطى إسهاماً وظيفياً أكثر أو أقل، فإننا نستطيع أن نؤكد أن التوازن سوف يهتز، ويصبح النسق أمام إستخدام آلياته الخاصة لتجاوز هذا الإهتزاز للتوازن.

ويبدا تأكيد مالينوفسكى على التوازن مع تأكيده على اللحظة الإفتراضية التى يسميها هو وتلاميذه (نقطة الصفر). وهى الفترة التى يحدث عندها التغير فى الثقافة أو فى المجتمع[40]. وتصبح هذه اللحظة الإفتراضية هى لحظة فاصلة بين بنائين توجب النظرة الوظيفية – من وجهة نظر مالينوفسكى – النظرة المتكاملة لكل منهما. ويصبح البناء السابق على هذه الفترة متميزاً بالإستقرار والتوازن، تلك الحالة التى تتطلب لتوفيرها فاعلية عناصر وآليات بنائية كثيرة. و بذلك تتضح وجهة نظر مالينوفسكى للتوازن فى مجتمع التروبرياند، مستنده إلى تداخل الإسهام الوظيفى بين هذه العناصر. بحيث أن كلا منها يتوقف على الأخرى. فإنتاج الحدائق من محصول «اليام» مثلا يؤدى وظيفة فى بناء النظام القرابى، وكذا فى بناء نظام «الكولا»، وفى الإحتفالات الشعائرية وفى السلطة وفى المبادلات التجارية. وعلى هذا النحو يتحدد الإسهام الوظيفى فى درجة الإستقرار فى حجم وأسلوب الإسهام المتبادل بين العناصر أو الأجزاء، أعنى التوازن بين هذه العناصر إلى أن يحدث ما يؤدى إلى إضطراب التوازن. كما حدث فى

مجتمع التروبرياند، نتيجة لتدخل عنصر جديد فى النسق، أو نتيجة لزيادة أحد العناصر فى إسهامه الوظيفى، مما يؤدى إلى خلق أثار بنائية تلغى حالة التوازن السابقة. حيث تمثل ذلك فى تدخل الأوربيين فى حياة السكان الأصليين، من خلال تأسيسهم لصناعات اللؤلؤ التى أصبحت تعطى الشخص ما يحتاجه دون أهمية الإعتماد على الروابط القرابية. بل أدى ذلك إلى الفناء السريع لنوعية حياة وثقافة السكان الأصليين، ذلك لأن هذا التدخل أوقف إسهام بعض العناصر مما أدى إلى إهتزاز النسق، فمثلا كان بعض محصول «اليام» يمثل الإسهام الوظيفى للإقتصاد متمثلاً فى بناء وتفاعل النظام السياسى فلما ضعف اسهام هذا المحصول، أدى ذلك إلى اضعاف السلطة السياسية، وذلك يرجع إلى أنه بدلا من أن يهدى بعض هذا المحصول للزعيم ليقوم ببعض التزاماته القبليه نجده أصبح يباع للرجل الأبيض، وبذلك إفتقد الزعيم قدرته المادية، ومن ثم السياسية[41]. ذلك لأنه كان يعتمد فى قدرته المادية على إسهامات أقارب زوجاته. أما زيادة أحد العناصر من كفاءته وإسهامه الوظيفى الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى اهتزاز التوازن، فيتمثل فى دخول اللنشات التجارية[42]، لكى تستخدم فى التنقل بين جزر الأرخبيل بسرعة تفوق سرعة قوارب «الكولا» مما أدى إلى إبطال دورها نهائياً نظراً لبطئها. وبذلك حرمت البشر من سكان هذه الجزر من متعة الرحلة والتجوال والمخاطرة والطقوسيات المناسبية المرتبطة بها،كما قللت أيضاً من إستخدام مناشط كالسحر وصناعة القوارب مع ما تحمله من طبيعة شعائرية وبنائية مرتبطة بالبناء التروبرياندى، ذلك لأن هذه المناشط ترتبط أساساً بحالة بنائية سابقة.

ويدخل فى إطار علاقات التوازن كذلك، تلك العلاقات البنائية التى تجعل إبن الأخت يرث خاله، بينما الإبن غريباً على إرث أبيه والبطن الذى

يعيش فيها. ونتيجة لذلك فإننا نجد أن التوتر يميز طبيعة توازن هذه العلاقة إذ نجد أن العاطفة وعلاقة الدم تربط الأب بإبنه مفضلاً إياه على إبن أخته. بينما قانون التسلسل الأموى يؤكد أن إبن الأخت هو الأحق بكل ما يملكه خاله من مال وسلطة. وقد كانت هذه العلاقة فى الحقيقة محل توتر دائم فى قرى التروبرياند،

حتى أن مالينوفسكى ذاته يؤكد أنه ذات مرة حدث خلاف بين إبن الأخت والإبن كان من نتيجته طرد الإبن من البطن وسبب ذلك حزناً فاجعا لأبيه وأمه. أن المجتمع يطور فى الغالب آلية خاصة لتخفيض التوتر فى النسق فى مثل هذه المواقف، كأن يزوج الأب إبنه لإبنة أخته ومن ثم يحوله إلى صهر له حق وراثته. من خلال زوجته التى هى بنت أخته. أو أن يفرض الرجل الأبيض فاعلية وأحقية رابطة الأب بالإبن كما حدث فى بعض قرى التروبرياند حينما كان يقوم الصراع بشأن ذلك(43).

وقد كان التوازن الذى يسود المجتمع البدائى ينتهك فى الغالب بواسطة كثير من الأفعال الإنحرافية كالقتل مثلا، تلك الجريمة التى يتغلب عليها المجتمع إما بالدية وهى حيلة بنائية لإعادة التوازن(44)، وإما بالقتل والإنتقام. بل أن جريمة زنا المحارم، كأن يتزوج الرجل بأخته برغم أن الزواج من الخارج فى هذه المجتمعات – إذ يعد كافة رجال القبيلة أخوة لبناتها ولايباح الزواج الداخلى حفاظاً على طهارة الدم – فإذا حدثت زيجة من هذا النوع، فإنها تعد إنتهاكاً للتوازن ويكبر حجم الإنتهاك كلما كانت درجة القرابة بين المتزوجين أقرب. ويلجأ المجتمع إلى العقوبات كآلية لإسترجاع توازنه. تلك العقوبات التى تبدأ من السخرية والإحتقار والإزدراء كلما كانت العلاقة القرابية بعيدة وغير واضحة، وحتى الطرد من القبيلة أو الجماعة كلما كانت درجة القرابة قوية وواضحة، حتى أن هذه العقوبات

والضغوط قد تدفع الشخص إلى الإنتحار أحياناً. ويؤكد مالينوفسكى أن حالات زواج الأخ بأخته نادرة للغاية، حيث لم تحدث إلا زيجتان إشتهرت بهما قبيلة واحدة هى المالازى Malasi [45] ، وبسبب ذلك فهى تثير الإحتقار نحوها لهذا السبب.

يبقى بعد ذلك ان نشير إلى أن كثيراً من الأفعال التى تعد إجرامية، كالسرقة والسحر الأسود وكذلك التخلف فى كم أو آداء المقايضة والتبادل سواء فى نظام «الكولا» أو المبادلات التجارية العادية، أو حتى إنتهاك ملكية أحد الأشخاص، يكون لها عادة رد فعل إجتماعى. ويقوم الشخص الذى وقع عليه الغرم عادة بالاستجابة لهذاالفعل الإجرامى، وبذلك يؤكد مالينوفسكى أن القانون المدنى وليس قانون العقوبات على ما يؤكد دوركيم هو الذى يسود المجتمع البدائى. وأنه ليس هناك هذا الولاء والخضوع الكامل للروح الجمعية للجماعة على نحو ما تفعل المدرسة الفرنسية، حيث يماثل موقف الرجل البدائى من العادة والقانون موقف الشخص الأوروبى منهما[46]. وأن أى فعل يعد إنتهاك لأحد القوانين أو العادات، بمعنى إنتهاك توازنها يواجه عادة بآليات الردع وإعادة التوازن إلى حالته الأصلية. وقد تحوى هذه الآليات الطرد من المجتمع، أو السجن أو السحر أو الإنتحار[47].

رابعاً : التغير الاجتماعي من الخارج بالاساس :

من الملاحظ أن هناك إتساق واضح فى موقف مالينوفسكى من التغير الاجتماعى والثقافى مع موقفه من علاقة السلوك الإنحرافى بالتوازن، فبينما هو يؤمن بوجود السلوك الإنحرافى فى المجتمع البدائى، وأنه يمثل إنتهاك لتوازن هذا المجتمع. فإنه فى ذات الوقت يؤمن بأن لدى النسق من الوسائل والآليات التى يعيد بواسطتها النسق هذا التوازن ويدعمه، ويصبح طبقاً لذلك وإتفاقاً معه أن التغير لا يمكن – حسب تصور مالينوفسكى – أن يكون من

الداخل رغم أنه قد أكد أن التغير قد يظهر بفعل عوامل تظهر تلقائياً من داخل المجتمع[48]، يؤيد ذلك أننا لا نلمح فى كتاباته أى تأكيد على التغير من الداخل. ذلك التأكيد الذى يعد أحد خصائص التصور العضوى للمجتمع،الذى يخضع فى تغيره وتطوره لهذا النوع من التطور المستقل. ومن هنا فإن غياب هذا النمط من التغير عن تصور مالينوفسكى مع أنه يمثل جوهر التصور الوظيفى عن التغير، من الضرورى أن يطرح تساؤلات عن طبيعة التغير فى نموذج النسق عند مالينوفسكى، إضافة إلى بعض التساؤلات الآخرى التى تتعلق بإمكانية إتساق وجهة النظر هذه مع حدود وجهة نظر التصور الوظيفى.

ولمعالجة ذلك نرى ضرورة طرح تعريف مالينوفسكى للتغير الإجتماعى. حيث نجده يعرفه منذ البداية بأنه «العملية التى يتحول بها نظام المجتمع القائم»، أعنى حضارته الإجتماعية والروحية والمادية من نموذج إلى آخر[49]. ومن الإدراك السريع لهذا التعريف نلاحظ مسألتين، الأولى أن التغير الثقافى عند مالينوفسكى يعنى التغير الإجتماعى أيضاً، وهذا ما أكدته «لوس مير» التى أكدت أنه كان يدرس قضايا المجتمع بنفس أسلوب علماء الأنثروبولوجيا الفرنسية الذين يركزون على المجتمع ككل، وليس على الثقافة فقط على نحو ما كان يفعل علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيون[50]. ويتضح ذلك من تصوره للثقافة بإعتبار إحتوائها على عناصر بداخلها تحتوى على تنظيم المجتمع إقتصاديا، وأيضاً على نسقه المعيارى، ودستوره السياسى ثم آليات ووسائل التعليم، اضافة إلى أنساق الدين والمعرفة[51]. ومن تصوره لعملية التغير والنطاق الذى يغطيه مصطلح الثقافة، وفقاً لتصوره، نلاحظ أنه كان مهتماً بالتأكيد على أن التغير يجب أن يتناول كل خصائص الثقافة دفعة واحدة.

ونعالج المسألة الثانية إنطلاقاً من قوله أن التغير هوالعملية التى يتحول بها نظام المجتمع من نموذج إلى آخر، وهنا نجد أن وجهة نظرة فى التغيرذات طبيعة كلية أساساً. وهى كلية لأنه يؤكد على انه إذا تغيرت إحدى جوانب البناء الاجتماعى فإنه لا بد وأن تتغير كافة الجوانب الأخرى تلاؤما مع ذلك. فإذا تغيرت السلطة أو الزعامة فإن ذلك سوف يكون له تأثير واضح على هيئة حدوث تغيرات تالية فى النظام الإقتصادى بل وفى العلاقات القرابية(52)، ثم يمتد التغير إلى الجانب المعيارى فى النسق. يؤكد ذلك التطبيق الإمبيريقى لوجهة النظر هذه حينما يؤكد أنه عندما فقدت الزعامة أو السلطة التروبرياندية مكانتها فى نظر السكان بفعل التغير الإقتصادى الذى أدخله الرجل الأبيض، فإن ذلك كان له تأثيره على كافة جوانب البناء الإجتماعى مثل العلاقات القرابية، وكذلك المبادلات الطقوسية والولائم الشعائرية اضافة إلى نظام«الكولا» ذاته(53). ومن المنطقى أن يستند التصور الكلى لعملية التغير عنده أساساً إلى تصوره لحالة التساند البنائى بين عناصر البناء الاجتماعى.

ويرى مالينوفسكى أن عوامل التغير الاجتماعى والثقافى تصدرمن الخارج بالأساس، إذ يؤكد أن التغير يعنى وطأة أو تأثير ثقافة عليا نشطة على أخرى بسيطة وسلبية(54). ومن الواضح أن وجهة النظر هذه بالتحديد للتغير وعوامله هى التى تلغى عن التغير الذى تصوره مسحة أن يكون وظيفياً، فقد عاصر مالينوفسكى كما أشرت إلى ذلك سياقا فكرياً رفض بعضه وإتفق مع بعضه الآخر. فقد عاصر التطورية، وإنتقال المجتمعات من مرحلة إلى أخرى، بحيث يعد هذا الإنتقال شاهداً على وقوع التغيرالاجتماعى والثقافى. ففى مواجهة التطورية ركز مالينوفسكى على الدراسة المعاصرة لعملية التغير، بمعنى تناول الكفاءة الوظيفية المعاصرة لعناصرالثقافة. ومن هنا فهو

يرفض أى تتبع تطورى أو تاريخى للنظام لمعرفة تطوره أو تغيره، وأن كان لم يرفض التاريخ كلية، بل نجده قد طوع له إستخداماً يلائم تصوره الوظيفى. بمعنى أن التاريخ مفيد بقدر إسهامه فى مساعدتنا على فهم الحاضر، فالماضى له معنى بقدر حياته وتأثيره فى الحاضر، ومن هنا فهو يؤكد على ضرورة تناول بعض وقائع وظواهر الماضى، التى يكون لها تأثير على وجود أو تفسير بعض وقائع أو ظواهر الواقع المعاصر(55). وفى مواجهة النزعة الانتشارية نجد انه برغم أنها تشبه التصور المالينوفسكى من حيث تأكيده على الدراسة المعاصرة، إلا أنها تعالج التغير عن طريق إنتشار أو إستعارة بعض السمات من ثقافة إلى أخرى. بينما نجد أن مالينوفسكى على خلاف ذلك يرفض أن يكون الإنتشار أو الإستعارة متعلق بسمات الثقافة فقط. بل يتعلق أساسا بالنظم ذلك لأن النظام عنده يعد وحدة للتحليل، وهو أيضاً وحدة للتغير. والواضح أننا نجد فيما يتعلق بذلك تناقضين أساسيين مع التصور الوظيفى للتغير. إذ يكمن التناقض الأول فى إفتراض الإعتقاد بإنفصال نظم الثقافة أو وحداتها وليس ترابطها وتكاملها، وهو إعتقاد قد يلائم التصور الإنتشارى الذى يستند إلى التصور الميكانيكى للثقافة إلا أنه لا يلائم التصور العضوى للثقافة، ذلك التصور الذى يعد أساس التصور الوظيفى. ويتمثل التناقض الثانى، فى أن مالينوفسكى كان يؤكد دائماً عدم إنفصال البناء عن الوظيفة، إذ تنفصل أهمية أى آداة عن وظيفتها التى تهدف إلى الإشباع البيولوجى. من هنا فإن التغير فى الوظيفة يجب أن يستوجب تغيرات فى الشكل اتساقا مع التصور العضوى، سواء كان هذا التغير عن طريق الاستعارة أى من الخارج أو من الداخل. وقد يرد على ذلك مالينوفسكى بتأكيده أن الحتمية الثقافية قد خلقت تصوراً أخر لهذه العلاقة بحيث أصبح شكل الآلة هو أساس وظيفتها. إلا أنه يظل هناك تناقض أساسى يتمثل فى

تأكيد مالينوفسكى الدائم على تكامل الثقافة بأساليبها ووسائلها العقلانية واللاعقلانية. إضافة إلى عدم تفسيره للانهيار السريع للثقافة الافريقية أمام الأوربية. ذلك الانهيار الذى يؤكد على – خلاف وجهة نظره – على كفاءة وظيفية أكثر بالنسبة للثقافة الأوربية على نظيرتها الافريقية.

يبقى بعد ذلك أن نوضح ذلك المشروع الذى ابتكره برنسلاو مالينوفسكى لدراسة التغير الاجتماعى والثقافى، وفى هذا الاطار فإننا أننا لا يجب أن نظلم مالينوفسكى بالتأكيد على أن ذلك يمثل كلمته النهائية للتغير الاجتماعى والثقافى، وذلك يرجع إلى أن هذا التصور لا يمكن أن يصدر عن عالم وظيفى له كفاءته، ولكننا نستطيع ان نؤكد أن مشروعه لدراسة التغير كان مشروعاً تعليمياً يود بواسطته أن يجيب على تساؤل يتعلق بأسلوب دراسة التغير الاجتماعى. ارتباطا بذلك يضم مشروع مالينوفسكى ثلاث عناصر أساسية، واثنين اضافيين تشكل فى مجموعها مشروع (مدخل الخانات الثلاث) وتفصيله كما يلى :

1– الثقافة المؤثرة أو الطارئة بنظمها ومقاصدها واهتماماتها (وهو يقصد بذلك الثقافة الأوربية).

2– القدر الموجود من عادات ومعتقدات السكان المحليين بل وتقاليدهم الحية.

3– عمليات الاتصال والتغير، تلك العمليات التى يتقابل فيها أعضاء الثقافتين فهم أما أن يتعاونوا أو يتصارعوا أو يتراضوا،ثم يضيف عنصرين نجد أن لهما أهمية قصوى هما :

4– أن المنهج الوظيفى للتغير يجب أن يهتم بإعادة تركيب الماضى، ذلك الماضى الحى والمتضمن فى الاسطورة والذى ما يزال له أثره فى نظم

موجودة. حيث أن التغير ولو كان قديما فهو لا يمحو الماضى بصورة كاملة وإن كان يبقى حيا تحت ظواهر السطح، يؤثر فى تفاعل الاتصال الثقافى المعاصر.

5- رد الفعل الافريقى للتغير، إضافة إلى معايير التكيف عدم التكيف، ومظاهر الرفض، حيث يتم تقييم ذلك كله ليس استناداً إلى موقف قيمى معيارى ذاتى، وإنما إلى نظره أدائية عملية[57].

وبعد أن يصور برنسلاو مالينوفسكى لنا عناصر مشروعه لتصور التغير الاجتماعى والثقافى فى المجتمعات الأفريقية نجده يؤكد أن واقع المجتمع الخاضع للتغير أبعد عن أن يكون واقعاً متكاملاً ومتوازنا. انه واقع يضم عديداً من العناصر الثقافية المتضادة والمتناقضة. وأن أى تصور لتكامل الثقافة يتجاهل ظواهر كحاجز اللون، وكذلك الانقسامات الدائمة التى تبقى على شريكى عملية التغير فى حالة عزلة دائمة كل عن الأخر، فى المصنع أو الكنيسة أو فى استغلال المناجم، وأن أفضل تسمية لذلك أنه نموذج مجتمع يخضع لنوع من التوازن المتوتر، ذلك لأن شريكى عمليه التغير لهما منطلقات مختلفة فى التفاعل المتغير. فبينما نجد أن الافريقى فى مرحلة التغير يجد نفسه انسانا بلا جذور،فقد اختفى استقراره القبلى القديم وكذلك وحدته القبلية وتنظيمه الاقتصادى الذى كان يوفر له الأمان، وأن الأوربى قد علمه من صفات المواطنة ما يهيئه لكى يكون آداه استغلال لهذا الأوربى. ومن هنا فهو يدرك أن مواطنته ناقصة عن مواطنه رفيقه الأوربى فهو يواجه التمييز العنصرى ضده فى كل أمور حياته اليومية والعادية، لذلك يتخذ الافريقى عادة موقفا مترددا من التغيير. بل أنه قد يتخذ موقفا مضاداً له، لأنه بينما نجد أن الأوربى يطرح فى عملية التغير بعض من عناصر ثقافته التى اختارها انتقائيا، لأننا نجده يقدم تلك العناصر التى تساعد على

استغلاله للإفريقيين وسلب ثرواتهم، دون أن يعطيهم ميزات الثقافة الأوربية، لذلك ساعد هذا الأسلوب الانتقائى على إفساد عملية التغير وليس انجازه[58]. وأمام هذا التناقض الذى يجعل من عملية التغير عملية معاناة درامية يخضع لها كل الأفارقة، نجد أن مالينوفسكى يلبس مسوح التبشير والوعظ حينما ينادى بما يسمى بالعامل العام الخير. وهو يقصد بذلك أن يشترك كل من الأوربى والأفريقى فى اتفاق مضمونة أن عملية التغير تهدف لخير كل منهما وأن على الأوربيين أن يكونوا خيرين فى مقاصدهم، وأنهم يجب أن يعملوا على تحضير الشعوب الأفريقية وليس استغلالها. وهنا نجد أنه يبتعد عن أن يكون عالما أنثروبولوجيا وظيفيا فى موقفه الفكرى، ويتجه نحو رؤية يوتوبية يتحدث فيها عن ما ينبغى أن يكون، وهى رؤية لا نراها فى أى تصور وظيفى أخر.

بالاضافة إلى ذلك فإننا نرى ضرورة أن نوضح أنه على الرغم من رفض مالينوفسكى لتصور واقع التغير الاجتماعى والثقافى كواقع متكامل، إلا أنه يؤكد أنه واقع بلا شك مفسر لذاته. فهو واقع ثقافى جديد يختلف فى مضمونة عن ترابط السمات الموجودة قبلا، بل وعن مجرد حدوث تحول تكيفى معدل لهذه السمات المستعارة. أنه واقع فيه من الظواهر التى لا نشاهدها فى أى من الثقافتين، واقع يمتلك حتمية ثقافية خاصة به ليست بالأفريقية أو بالأوربية[59]. ثم يدلل امبيريقيا على ذلك بقوله أن ظواهر كالتمييز العنصرى ليست أصيلة فى الثقافة الأوربية بالشكل الذى تحدث به فى أفريقيا. وكذلك أسلوب تجنيد العمال للعمل، إضافة إلى أسلوب التخلى عن فائض العمل الأفريقى وهو الأسلوب الذى ليس له أصوله فى النموذج الأصلى لأى من بنائى الثقافة الأفريقية والأوربية على السواء[60]. ومن هنا فالتغير يمثل نموذجاً جديداً فى الثقافة، نموذجا يعتمد إلى حد كبير على

التأثير الأوربى، إلا أنه يضم أيضا رد فعل القيم القبلية الأفريقية القديمة نحو هذا التأثير. فالقانون وعلاقات التعاون والنسق السياسى كلها تمثل وقائع جديدة لا تنتمى بأى شكل للثقافات الأم. وهى لا تفهم بالرجوع المباشر لأى منها، بل يجب أن تدرس كافة عمليات وتفاعلات التغير وفقا لاسس حتميتها الخاصة(61).

ارتباطاً بذلك تؤكد «لوسى مير» انه لو عاش برنسلاو مالينوفسكى قليلا لقام بتنفتح هذه المقالات التى نشرها «د. كايرى»، ولغير فيها كثيراً. بل أننا نؤكد انه لو قدر له الحياة أكثر لقدم لنا أول إسهام وظيفى موجه لمعالجة قضية التغير الاجتماعى والثقافى. لكنه بالقدر الذى تركنا عليه، لم يعالج التغير معالجة وظيفية بنائية، إذا ماذا تكون معالجته؟ هل نقول أنها تطورية أو انتشارية ؟ من الواضح أنها كذلك وليس كذلك فقد قدم تحليله فى بعض الأحيان وفقا لنفس مقولات هذه المنظورات النظرية فى معالجتها لقضية التغير، غير أنه كان فى نفس الوقت معارضا لرؤية كل منهما للتغير على نحو ما أوضحت. بالاضافة إلى ذلك فإن علينا أن نذكر أن جهد برنسلاو مالينوفسكى كان موجها إلى دراسة المجتمعات البدائية الساكنة كما فى جزر التروبرياند، أو إلى مجتمعات افريقيا حيث كانت دراسته لها تمثل هروباً رومانتكيا من حضارة الغرب السريعة التغيير، والتى تنتشر فيها مظاهر التناقض والصراع إلى حيث الهدوء والأستقرار والتوازن. ذلك يساعدنا على فهم موقفه وعدم رغبته فى دراسة قضايا التغير فى مجتمع جزر التروبرياند، بل وتركيزه على دراسة نظام «الكولا»، وهو تبادل شعائرى رومانتيكى شاعرى إنقضى وانتهى منذ ثلاثة أجيال على ما يؤكد هو نفسه(62).

خامسا: التحليل الوظيفي لنظام «الكولا» :

إذا كنا قد برهنا فى دراسة دوركيم على أنه كان عالما بنائيا وظيفياً على المستوى التصورى بدرجة اسهمت فى إرساء الأساس السوسيولوجى للاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، فإننا نؤكد هنا أن برنسلاومالينوفسكى قد أسهم أيضا فى إرساء أسس قوية للتحليل الوظيفى فى الأنثروبولوجياوعلم الاجتماع.حيث تتشكل هذه الأسس من مجموعة إجراءات التناول الميدانى والامبيريقى لمعطيات الواقع موضوع الدراسة. وللانصاف فقد كانت مهمة مالينوفسكى أكثر صعوبة ومشقة، ذلك لأن من اليسير على الفكر والتفكير المتعمق أن يكشف عن الاتساقات والتناقضات بين قضايا التصور النظرى. غير أن الباحث الميدانى حينما يوجه بنموذج فكرى بعينه فإننا نجده يعانى فى كشف الوقائع التى تتسق وتصور هذا النموذج ويصبح عليه أن يكون صبوراً، ذا قدره تصنيفيه وتحليلية، وذا عمق فكرى يمكنه من فهم وقائع قد يناقض مضمونها ظاهرها. وهنا تكمن الصعوبة التى تمكن مالينوفسكى من التغلب عليها، أولاً بسبب قدراته الامبيريقية الفذة، وثانيا لأنه مكث أطول مدة مكثها باحث ميدانى فى مجتمع دراسته بحيث مكنه ذلك من فهم كافة جوانب البناء الاجتماعى ما خفى منها وما وظهر.

ذلك يعنى أن برنسلاومالينوفسكى قد أسس بحق أعمق تحليل بنائى وظيفى فى الأنثروبولوجيا. ومن المعتقد أن الصواب قد جانب عالم الاجتماع تالكوت بارسونز حينما انتقد مالينوفسكى بحجة أنه قد تخلى عن التحليل البنائى للثقافة وللانساق الاجتماعية فى سبيل مستوى معين من الاهتمام بالتحليل النفسى. ومرة أخرى نجده يواصل إنتقاده حينما أكد أنه قد فشل فى خلق هذا النوع من التحليل أو حتى استعارة من الآخرين. وأنه لو أنجز ذلك

لتمكن من فهم وتحديد طبيعة الدوافع الاجتماعية ومولداتها عند الفرد بصورة أكثر قدرة مما فعل. وأن ذلك كان من الممكن أن يساعده على فهم نظرية الشخصية وعلاقتها بالانساق الاجتماعية[63]. وللرد على ذلك نوضح أن النقد البارسونزى يتخذ من التحليل البنائى البارسونزى للنسق إطاراً مرجعياًعلى أساسه يوجه النقد إلى التحليل المالينوفسكى، وهوما يتعارض وأصول النقد المنهجى. الذى يستوجب أساسا كشف التناقض أو القصور المنطقى فى بناء النموذج موضع التقييم، عن طريق التحقق من الاتساق المنطقى لقضاياه، وثانيا بالكشف عن الاسهام الذى أداه هذا النموذج بالنسبة للاتجاه النظرى الذى ينتمى إليه. وثالثا بتوضيح مدى الصدق أو القصور الامبيريقى لهذا النموذج، ومدى امكانية أن يكون موجها أو مساعداً لإجراء الدراسة الميدانية. أما قياس قدرة أو قصور النموذج وفقا لوجهة نظر تستند إلى اطار مرجعى ذاتى، فذلك يبتعد كثيراً عن منطق التقييم العلمى إلا إذا اتفقنا على أن العلم يعبر عن وجهه نظر الناقد الذاتية، وهى هنا وجهه نظر تالكوت بارسونز.

ولتوضيح قدرة مالينوفسكى على التحليل البنائى الوظيفى نحاول أن نتناول بالتحليل أحد نظم بناء مجتمع أو جزر التروبرياند التى شكلت نطاق دراسته. ويتمثل ذلك فى نظام «الكولا» الذى شكل محور التحليلى الوظيفى عند مالينوفسكى فى دراسته لهذا المجتمع. فهو كما نعلم قد ذهب إلى جزر التروبرياند ليدرس نظام «الكولا» الذى سمع عنه من الرحالة البيض، ومن قراءته لكتاب الأستاذ «سلجمان»[64]. ومن ثم نجده قد ذهب لدراسة هذا المجتمع برؤية علمية تستند إلى تصور محدد يستند إلى تناول المعطيات تناولا علميا، وهو التناول الذى لا نراه تناولاً جزئيا بل كليا متكاملاً حيث أوضح فى إطاره أن لكل عنصر دور ووظيفة، كما وأضح أنه قد اتخذ من

النظام وحده للتحليل البنائى. فهو يعرف النظام باعتباره مجموعة من الناس المتحدين لانجاز نشاط بسيط أو معقد وهم دائما يمتلكون التجهيزات المادية والمعرفة الفنية اللاومة لذلك. وغالباً ما ينتظموا على أساس ميثاق شرعى محدد ومعتاد ومصاغ لغويا فى الاسطورة والبدعة والحكمة الشعبية، كما أنهم مدربون لتنفيذ وظيفة هذا النظام(65). وقبل أن ندخل فى إستعراض تحليله للنظام نرى ضرورة أن نوضح محاور التحليل الوظيفى عند مالينوفسكى، حيث استند فى تحليله للنظام إلى ثلاثة محور أساسية. المحور الأول يؤكد على فيه النظرة المتكاملة والبنائية للنظام، بمعنى رؤية النظام بإعتباره جزء من بناء أكبر أو بإعتباره أحد عناصر النسق يتبادل مع بقية العناصر الأخرى الاسهام الوظيفى والتأثير المتبادل. والثانى النظرة إلى التكامل الداخلى للنظام بمعنى تناول النظام على أنه الوحدة الأكبر فى التحليل، بصفته يحتوى على عناصر أخرى ذات اسهام وظيفى فى بناء المجتمع، ويركز المحورالثالث الأداء الوظيفى لهذا النظام مع توضيح تأثير هذا الأداء على كل من المستوى الفردى والاجتماعى والبنائى.

وقبل الشروع فى توضيح وشرح كيفية ممارسته للتحليل الوظيفى وفقا لهذه المحاور الثلاثة نود أن نعرض لمدخله للدراسة، إذا نجد أنه فى بداية بحثه الرائد «أرخبيل غرب المحيط الهادى» يصف نطاق الدراسة وصفا أيكلوجيا، بمعنى وصف مواقع الجزر والسلالات البشرية التى تسكن هذه الجزر، ثم أماكن البحار العميقة التى تصلح للابحار، وكذلك طبيعة المكان اضافة إلى وصف حلقات الجزر التى تمارس فيما بينها تبادلات «الكولا» إلى جانب ذلك نجده قد عرض لبعض الإجراءات المنهجية والميدانية التى اتخذها كى تكون ملاحظاته الميدانية ناجحة. وبعد أن يخلص من الوصف الايكلوجى نجده يدخل إلى التحليل البنائى عن طريق تتبع رحلة «الكولا»

ابتداء من التفكير فى الرحلة، إلى بناء القوارب، إلى انجازها وعودة القوارب محملة بالأساور والعقود[66].

وفى تحليله لنظام «الكولا» بصفته جزء من البناء، نجده يبدأ بوصف صناعة القارب، بتأكيده أن صناعة القارب يشرف عليها الزعيم. وصناعة القارب تحتاج إلى تقسيم العمل حيث توجد اعمال لكل من الخبير والساحر بإعتبارهما اهم أشخاص هذا التقسيم للعمل. وبعد ذلك نجده يستطرد فى توضيح علاقات السحر بالقارب، فهناك سحر ينجز إذا وقف أحد على كتلة الخشب بعد أن تجوف حتى لا تنكسر، اضافة إلى سحر يخفف وزن القارب إذا كان ثقيلا، ثم سحر تدشين القارب لكى يكون سريعاً، إلى جانب سحر يحافظ على القارب من المخاطر فى رحلة «الكولا»، ثم سحر الحصول على تبادل موفق فى رحلة «الكولا»، بالاضافة إلى سحر لابد أن يعرفه كل من يشترك فى «الكولا» خاصة بالنظام نفسه. ثم نجده يتطرق بعد ذلك إلى ذكر أن هناك سحر أسود، وأن هناك خوفا من سحر النساء، وأسلوب ابطاله. وهكذا نجد أن السحر كنظام اجتماعى له وظائف متعددة ابتداء من توفير الأمان الفردى إلى تحقيق الانجاز البنائى وأن ممارسات هذا السحر يؤدى غالبها داخل نظام «الكولا»[67]. فإذا تمت صناعة القارب وتدشينه، بل والقيام برحلة «الكولا»، نجده يذهب إلى أن هذه الجهود جميعها تتطلب تضحية من الزعيم صاحب القارب والتى تتخذ شكل دفع أجور للساحر والخبير، وإقامة الولائم لمن يحضروا احتفالات التدشين أو القيام أو الرجوع من «الكولا». فى هذا الاطار نجده يتحدث عن قدرة الزعيم على العطاء وأن هذا العطاء لكثرة ما عنده من ثروة يستند بالأساس إلى عدد زوجاته. ثم ينطلق من ذلك إلى دراسة النظام القرابى فنظام القرابه – على ما يرى – أمومى فى مجتمع التروبرياند، حيث يعطى الأخ جزاءاً من زراعته لاخته.

ومن هنا فكلما تزوج الرجل أكثر كلما زادت ثروته، وهذا لا يتوفر إلا للزعيم وأن الابن يرث خاله وليس أبيه. إلى جانب ذلك نجده يتحدث عن دور الهدايا الذى يعطيها الرجل لزوجته ووظيفتها، ثم ينفذ من ذلك إلى زراعة الحدائق وكيف أن التربرياندى يجهد نفسه لكى يحقق محصولاً وافرا يباهى به أمام الناس لانه سيعطى اخته الكثير وأنها لن تعانى من قله الطعام هذا العام، ثم يتحول إلى وصف أسلوب الزراعة وأسلوب التخزين، وفى هذا الأطار نجده يوضح لنا مدى ارتباط النظام القرابى والاقتصادى بنظام «الكولا»[68]. ثم ينتقل بعد ذلك إلى نظام الزعامة والسلطة، حيث نجده يعرض لأسلوب تجمع القرى تحت قيادة زعيم واحد هو نفسه قائد رحلة «الكولا». وأنهم يبادلون الزعيم بالعقود أو بالأساور، وأن هداياهم دائما هدايا فاتحة أو بادئة فى علاقة «الكولا» أما هدايا الزعيم فهى خاتمة، وذلك فى الكولا الداخلية لسمو مركزه الاجتماعى[69]. وإن قارب الزعيم فى الرحلة يكون أسرعها، وعلى باقى القوارب أن تسير خلفه. فإذا أبطأ قاربه فعليها أن تتأدب وتظل خلفه، ويجرى الزعيم السحر المتعلق بسرعة القارب، فإذا فشل فمعنى ذلك أن زوجته الذى تركها فى الجزيرة قد خانته مع رجل أخر. وهكذا إلى أن تعود الرحلة بزعامة الزعيم، حيث نجده فى اطار هذا الوصف والتحليل يعالج بصورة دائمة علاقة «الكولا» بكافة نظم البناء الاجتماعى الأخرى. بحيث أننا نرى هذه النظم من خلال اسهامها البنائى الوظيفى فى هذا النظام وتبادل هذا النظام معها ذات الاسهام الوظيفى، بصورة تؤكد لنا دائما أن «الكولا» هو محور كافة هذه النظم فى التحليل وليس أهمها، حيث يعد هذا المحور الأول الذى مارس مالينوفسكى وفقا له تحليله البنائى الوظيفى.

وقد تناول التحليل وفق المحور الثانى نظام «الكولا» ذاته بتحليله من

الداخل.إذ نجده يصفه أولاً بأنه شكل من أشكال المقايضة أو التبادل ذو طبيعة قبلية ممتدة ومنتشرة. وهو ينجز بواسطة مجتمعات تسكن حلقة متسعة من الجزر تشكل فيما بينها محيطا مغلقاً، والواقع أن نظام «الكولا» كما يصوره هذا التعريف ينقسم إلى ثلاثة أنواع أو ثلاثة مستويات من التبادل والمقايضات هي:

1- المقايضات داخل مجتمع «الكولا»(70) وهو ما يعرف بالكولا الداخلية، حيث تقدم الهدايا إلى الزعيم كما يحدث في جزيرة «كيرواتا» فهو الذى يعطيه الناس الهدايا الفاتحة أو البادئة وهو يعطى الهدايا الخاتمة أو المقابلة، ولكنه لا يبدأ العامة بالهدايا أبداً. وهى تختلف عن تبادلات «الكولا» الخارجية في كونها تعد مؤشراً على التباين فى المراكز أو المكانات الاجتماعية حيث الأقل هو الذى يعطى الأسمى والأعلى فى المركز أولا، ليخطب وده ويبدأ علاقة «كولا» معه، وعلى الأخير وهو الأسمى أو الاعلى أن يرد على التبادل ويعمده(71).

2- «الكولا» بين مجتمعين متجاورين إلا أنهما منفصلين، ويستعرضها مالينوفسكى فى الرحلة التى قام بها الزعيم «تولوا» من «كيرواتا» إلى «كتافا». وهى كما يراها مالينوفسكى تعد وسيلة إعلامية رائعة. إذ أنه بعد أن يرجع الزعيم فإنه يحكى للعامة الذين يتحلقون حوله عن حالة حدائق اليام هذا العام فى «كتافا» ثم يحدثهم عن ترتيبات ورحلات «الكولا» المستقبلة أو القادمة. وهى لا تستغرق زمنا طويلاً فقد يذهب فى المساء ويرجع فى صباح اليوم التالى. كما أنه لا يحتاج إلى سحر الابحار الذى يحميه من مخاطر البحر وغير ذلك من أنماط السحرالمتعلقة «بالكولا» الخارجية(72).

3- «الكولا» الخارجية التى تبحر عبر مسافات بعيدة فى البحر بين مختلف المقاطعات والجزر. ويعد هذا النوع الثالث أهمها جميعا ويصوره مالينوفسكى على أساس أن الرحلة تسير على وفق محيط دائرة حيث تبحر فى إطارها القوارب التى تحمل العقود الطويلة التى تتشكل من الصدف الأحمر فى اتجاه عقارب الساعة وتبدأ من الجنوب إلى الشمال، ذلك فى مقابل القوارب التى تحمل الأساور التى تسير فى الاتجاه المضاد لاتجاه عقارب الساعة. أى أن السلعتين تسيران فى اتجاهين متضادين، وقد تستهلك دورة كل سلطة من السلعتين من سنة إلى سنتين(73). وبرغم أنه ليس لهذه السلع أية قيمة عملية على الإطلاق، إلا أن لها قيمة شعائرية وطقوسية. حيث ترتفع مكانة الفرد وفقا لنوع السلع التى يحصل عليها من هذه المبادلات، وبخاصة الأشياء النادرة التى لها قيمة طقوسية عالية. وهذه التبادلات تتم فى سياق يسوده التكلف والرسميات التى تؤكد على التدرج والمراتب وتباين المكانات ولا تنحدر إلى مستوى المساواة. وبعد أن ينتهى التبادل الشعائرى يدخل الناس فى عمليات تجارية عادية، يساومون فيها على الطعام والسلع الاستهلاكية الأخرى التى لها قيمة عملية. ويختلف «الكولا» الخارجية عن الداخلية فى ان القائمين بالرحلة لا يأخذون معهم سلع التبادل الشعائرية، بل يذهبون لتلقيها فقط كهدايا، وذلك لتساوى المكانات الاجتماعية التى تحتم تساويا أو توازنا فى انجاز «الكولا». حيث يقطع أحد الفريقين رحلة «الكولا» أما الثانى الذى لم يقطع الرحلة فعلية دفع الهدايا(74).

وفيما يتصل بتحليل نظام «الكولا» من الداخل، فإننا نجده يقسمه تحليليا إلى ثلاثةعناصر، العنصر الأول ويتكون من ميثاق النظام وهو يتشكل من مجموعة القواعد والمبادئ والقيم والمعايير، التى يعبر عنها فى الأساطير

والخرافات والحكمة الشعبية، و التى يجب أن يراعيها الناس فى سلوكهم أثناء انجازهم لنظام الكولا ويحتوى ميثاق «الكولا». أو جانبه المعيارى على عدد من المبادئ والقواعد الأساسية، منها أنه إذا ما أعطيت هدية فى نظام «الكولا» فلابد أن تردها مهما تأخر الزمن أو تقادم وأن هذا الاستبدال لا تدخله المساومة، وقد يتخلل الفترة الزمنية بين انجاز الاستبدال هدايا صغيرة[75]. من هذه القواعد ايضا أن طرفى تبادل «الكولا» يجب أن يكونوا كرماء فى عطاءاتهم، حيث يعد ذلك من محددات المكانة الاجتماعية. فالرجل الكريم تأتيه هدايا «كولا» كثيرة بعكس الشخص البخيل[76]. من هذه القواعد كذلك أن الناس قد يمنحوا صاحب عقد ثمين محاصيل زراعية للتوسل إليه لكى يهديه لهم، وهذا يخلق ضمنيا سمعة ومكانة اجتماعية عليا لصاحب العقد[77]. من القواعد المعمول بها ايضا أن هناك بعض القرى لا يمارس تبادلات «الكولا» فيها إلا الزعماء، أما العامة فيحرم عليهم الاشتراك فيها[78]. من القواعد ايضا أن المشترك فى تبادلات «الكولا» إما أن يكون شماليا أو جنوبيا، صاحب عقد أو صاحب أساور[79] وإن رحلة «الكولا» تبدأ من الجنوب وليس من الشمال[80] من القواعد كذلك إن الشخص المشترك فى تبادلات «الكولا» يجب أن يكون قد تخطى مرحلة المراهقة ولا تشترك النساء فى تبادلات «الكولا» الخارجية وإنما قد يتبادلنها مع أزواجهن[81].

ويتحددالعنصر الثانى لنظام «الكولا» بالجانب المادى، ويتمثل فى القارب واعداده، وكذلك فى عقود «الكولا» نفسها، اضافة إلى مواد التبادلات التجارية التى يلفونها فى الحصير ويأخذونها معهم. ثم سير الرحلة البحرية ذاتها والأشخاص المشتركين فيها، وأسلوب الإبحار وتقسيم العمل فوق القارب لقيادته بين الزعيم والبحاره والمساعدين والصبى الصغير. ويتم ضبط هذا الجانب بواسطة مجموعة من القيم والقواعد التى وردت فى العنصر الأول

وهو الميثاق، ويحتوى هذا الجانب أيضا على الأطعمة والولائم وكافة المعدات المادية.

ويتشكل العنصر الثالث فى بناء النظام من آليات الدعم أو الحفاظ على البقاء. ويعد السحر أول الآليات التى تهدف إلى الحفاظ على إتمام الرحلة وانجازها. وهناك انواع كثيرة من السحر فى جميع مراحل انجاز نظام «الكولا» ابتداء من السحر الذى يمارس على قطعة الخشب التى سيصنع منها القارب وحتى السحر الذى يمارس فى مواجهة المخاطر والحصول على هدايا «كولا» جيدة. وعلى ذلك فيجب على كل من يقوم برحلة «الكولا» أن يكون عارفا بالسحر وخاصة الزعيم[82]. أما الآلية الثانية وتتمثل فى تدريب وتعليم الصبية والشباب الذين يشتركون فى رحلة «الكولا» على كيفية أن يكونوا بحارة مهرة، وذلك حتى يعرفوا مسار رحلة «الكولا»، وخاصة «الكولا» البحرية[83]. أما الآلية الثالثة فتتمثل فى السلطة حيث الزعيم هو المسيطر على رحلة «الكولا» وهو الذى يشرف على جميع مراحل تنفيذ الرحلة، ابتداء من صناعة القارب وحتى انجاز التبادل الشعائرى. والحقيقة أن هناك تدرجاً للسلطة بحيث أن كل قرية لها زعيم وكلهم يتبعون زعيم المقاطعة، الذى يكون دائما قائد لرحلة «الكولا»، وتكتسب الزعامة فى هذه المجتمعات قدراً كبيراً من الاحترام والتقدير.. والحقيقة أن مالينوفسكى فى عرضه لدراسة نظام «الكولا» فى مجتمع التروبرياند لم يتبع هذا التصنيف الذى عرضنا بواسطته لنظام «الكولا» ولكنه كان فى هذه الدراسة باحثا اثنوجرافيا يركب المادة المبعثرة حتى تبدو متكاملة وفقا للمنظور النظرى الذى عرض له بصورة واضحة ومحددة كما قدمه فى كتابة نظرية علمية عن الثقافة.

ويتشكل المحور الثالث الذى حلل مالينوفسكى على أساسه النظام، من مستوى الأداء الوظيفى. وفى إطار ذلك نرى من الضرورى الرد على النقد

الذى وجهه اليه Mauss بقوله أن مالينوفسكى لم ير فى «الكولا» إلا نظاما اقتصاديا، بينماهو من الناحية العملية نظام لا تفع لها وبدلا من ذلك نجد أن وجهة نظر موس لنظام «الكولا» تستند إلى النظر اليها بإعتبارها شعائر رمزية تشير إلى علاقات الود والصداقة، التى تدخل كمكون أساسى فى البناء الاجتماعى(84). يؤكد ذلك أن برنسلاو مالينوفسكى قد عرف كافة الوظائف الاجتماعية المتعلقة بهذا النظام، ابتداء من تلك الوظائف المنطلقة من الحتمية البيولوجية إلى تلك المنطلقة من الحتمية الثقافية. فله وظائف اقتصادية، يتجسد ذلك فى الحديث عن الجزر التى ارتفعت محاصيلها هذا العام(85). بالاضافة إلى ذلك فإننا نجد أن «الكولا» تخلق نوعا من التماسك الاجتماعى بين أفراد مبعثرين، من خلال تأسيس تجانس اجتماعى وقيم مشتركة بين عديد من الجزر والمناطق(86). إضافة إلى فإن ملكية سلع الكولا تؤمن الخوف من الأرواح الشريرة، إلى جانب انها تؤسس تبادلات تجارية كثيرة ومتشابكة فى البناء الاجتماعى(87). الى جانب أن «الكولا» تتدخل فى تحديد المكانة الاجتماعية والترتيب الاجتماعى للأشخاص داخل البناء الاجتماعى، سواء من حيث انجازهم لوظائفه أو من حيث إسهامهم فيه.

المراجـــع

1- M. Gluckman.: Op. Cit P. 251.

2- B. Malinowski.: Argonauts of the Western Pacific. P. 14 - 15.

3- Ibid. P. 325 - 328.

4- A. R. Leach.: Op. Cit. P. 135.

5- B. Malinowski.: Argonauts of the Western Pacific. P. 18.

6- G. Osipov.: Sociology, Problems of Theory and Method Progress Publishers, Moscow, Fifst Printing, 1969, P. 84.

7- T. Porsons.: Op. Cit. P. 54.

8- A. R. Leach.: Op. Cit. P. 136.

9- B. Malinowski: Argonauts of the Western Pacific. P. 42.

10- B. Malinowski,: A Scientific Theory of Culture and Other Essays P. 94.

11- T. Parsons.: Op. Cit. P. 67.

12- B. malinowski.: A Scientific Theory of Culture and Other Essays. P.

13- Ibid. P. 91.

14- Ibid. P. 112.

15- ibid. P. 123.

16- Ibid. P. 125.

17- B. Malinowski.: A Scientific Theory of Culture and Other Essays. P. 126.

18- T. Parsons.: Op. Cit. P. 4. And see also Malinovws: A scintific Theory of Culture. P. 121.

19- B. Malinowski.: Ibid. P. 122.

20- D. Martindale.: Op. Cit. P. 457.

21- A. Gouldner.: Op. Cit. P. 215.

22- B. Malinowski.: A Scientific Theory of Culture and Other Essays. P. 159.

23- D. N. Magumdar. & Madan, T. N. Op. Cit. P. 23 and see also. B. Malinowski, Ibid. P. 32.

24- B. Malinowski: A Scientific Theory of Culture and Othere Essays. P. 152.

25- Ibid. P. 25.

26- Ibid. Chap. 10. Pp. 120 - 131.

27- Ibid. P. III.

28- Ibid. P. 98.

29- Ibid. P. 99.

30- B. Molinowski.: Argonauts of the Western Pacific. Pp. 125 - 146.

31- Ibid. P. 336.

32- Ibid. P. XIII.

33- Ibid. Pp. 364 - 465.

34- Ibid. Pp. 510 - 513.

35 - إيفانز بريتشارد: مرجع سابق، ص 140 .

36 - د. أحمد أبو زيد: البناء الإجتماعى، مدخل لدراسة المجتمع، الجزء الأول، المفهومات، الدار القومية للطباعة والنشر 1965 ، ص 221.

37- B. Molinowski.: Op. Cit. P. 513.

38- D. Martindale.: Op. Cit. 459.

39- B. Malinowski: A Scientific Theoryof Culture and Other Essays. Pp. 91 - 119.

40- B. Malinowski.: Crime and Custom in Savage Society; Landon, Kegan paul Trendh Trubner & co ltd. Broanway House 68 - 74 charter lane E. C. 1940. Pp. 18 - 20.

41- Ibid. P. 22.

42- Ibid. P. 34.

43- B. Malinowski.: Argonauts of the Westem Pacivic. Pp. 464 - 465.

44- Lucy Maire: Op. Cit. P. 229.

45 – د. أحمد أبوزيد، البناء الإجتماعى الجزء الأول، المفهومات، ص 218.

46- B. Malinowski.: Argonauts of the Westerr Pacific. Pp. 456 - 468.

47- Ibid. Pp. 154 - 156.

48- B. Malinowski.: Crime and Custom in savage Society. Chap. 4.

49- Ibid. Pp. 118 - 119.

50- Ibid. Part 2 Chap. I.

51- Ibid. Pp. 3, 4, 30.

52- Ibid. Pp. 116 - 118.

53- B. Malinowski.: The Dynamics of Cultural Change: an Inquiry in Race Relations in Africa, Ed. By. Phyllis M. Kaperry, New Haven, Yale University Press 1947. P. I.

54- Ibid. P. I.

55- Lucy Mair.: Op. Cit. P. 232.

56- N. J. Smelser.: Op. Cit. P. 258.

57- B. Malivoswki: Op. Cit. Pp. 32 - 34.

58- N. J. Smelser.: Op. Cit. P. 258.

59- B. Malinawski.: Argonauts of the Western Pacific. Pp. 58 - 59.

60- L. Mair: Op. Cit. Pp. 233 - 234.

61- B. Malinowski; The Dynanies of Cultural Change. Pp. 64 - 65.

62- Ibid. P. 23.

63- Ibid. P. 80.

64- Malinowski B.: Argonauts of the Western Pacific. Op. Cit. Pp. 154 -150.

65- T. Parsons: Op. Cit. P. 66.

66- B. malinowski.: Argonauts of the Western Pacific, Op. Cit. Pp. 32 - 33.

67- B. Malinowski: The Dgnamig of Cultural Change, Op. at, P. 49 - 50.

68- B. malinomski.: Argonauts of the Western Pacific. Pp. 154 - 156.

69- Ibid, P. x11, 261, 336.

70- Ibid. Pp. 41, 42, 44, 465, 465.

71- Ibid. P. 473.

72- Ibid. P. 206.

73- Ibid. P. 478.

74- Ibid. P. 472.

75- Ibid. P. 94.

76- Ibid. P. 473.

77- Ibid. P. 328.

78- Ibid. Pp. 95 - 96.

79- Ibid. P. 98.

80- Ibid. P. 99.

81- Ibid. P. 275.

82- Ibid. P. 276.

83- Ibid, Pp. 325 - 326.

84- Ibid. Pp. 281 - 288.

85- Ibid. Pp. 261.

86- Ibid. Pp. 278 - 280.

87- E. R. Leach.: Op. Cit. P. 133.

88- B. Molinowski.: Argonauts of the Western Pacific, Op. Cit. P. 374.

89- Ibid. P. 513.

90- Ibid. P. 510.